الدكتور
سامي عفيفي حجازي

رؤية نقدية إسلامية
في
نظرية المعرفة عند جون لوك

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ — ١٩٩١ م

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أنعم علينا بالإسلام — وهدانا للإيمان وحفظ لنا أصول الهداية بالعلم والمعرفة فى كتابه الكريم وبعد .

فهذا بحث حول بيان الأسس التى قامت عليها نظرية المعرفة .

وفى هذه الدراسة سنحاول أن نقوم بجولة سريعة حول نظرية المعرفة ومن خلال حوار هادىء حيث إن الفلسفة علم يعتمد اعتماداً تاماً على العقل وهو قد يستعين بوسائل أخرى على تثبيت يقينه بالتجربة أو بالمشاهدة أو بهما معاً .

ومن هنا قد يضيف كل فيلسوف لبنة إلى الحقيقة أو يحليها لأنها لا تقال بشكل نهائى فى عرف الفلاسفة .

وذلك لأن أصحاب هذا المنهج الفلسفى يفترضون ألا يبدأ الفيلسوف متأثراً بأحكام مسبقة أو أفكار جاهزة ، بل يتجرد من كل ما يحجب تفكيره وألا يقع أسيراً لمسلمات غيره وكأن الجديد على يده نذر يسير أو ربما أفضى به الأمر إلى انعدام كل جديد فى دائرة الفكر .

ولذا فالفيلسوف يبدأ بداية غير تقليدية وإذا انتهى نهاية تتفق مع الفطرة والدين رحبنا به وقبلناه .

أما إذا انتهى نهاية غير متفقة معهما فيجب ألا نصادر رأيه بل ينبغى أن تتسع صدورنا لمنا قشته والحوار معه فى مناخ فكرى صحى لا شحناء فيه ولا سباب ولا قذف ولا اتهام وفى مثل هذا الجو تتفتح كل الزهور وتنمو كل اللبنات لإفساح الباب لخروج الحقيقة فى ثوبها الكامل والتدريب على حرية الرأى والاستفادة من تراث الآباء والأجداد السابقين .

وعلى ضوء هذا نقف مع فيلسوفنا لتحليل مساهماته فى مجال نظرية المعرفة وتقويمها .

وقبل أن نبدأ فى بيان هذه الأسس يجدر بنا أن نقف على حياة رائد نظرية المعرفة الفيلسوف — چون لوك — .

حياته :

ولد — چون لوك — فى التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٦٣٢ فى رينحتون بالقرب من بريستول بانجلترا وبعد أن تعلم فيلسوفنا اللغات القديمة التحق بجامعة اكسفورد ودرس الفلسفة المدرسية التى كانت لاتزال سائدة آنذاك ، ولكنه لم يكن راضياً عن هذه الدراسة ولم يجد فيها ما يشد اهتمامه ، وعلى العكس من ذلك كان معجباً أشد الإعجاب بوضوح الفلسفة الديكارتية فقد بدت له مؤلفات ديكارت «كما لو كانت وحياً من السماء ويعترف لوك بفضل ديكارت وتأثره به فيقول .

« إن الفضل فى تحرره من الطريقة العتيقة التى كانت تتبعها الفلسفة المدرسية فى معالجة مشكلات الفلسفة والتى كانت سائدة فى عصره ، إنما يرجع إلى كتابات ديكارت ومؤلفاته»[1] .

وقد بدأ لوك أيضاً موهبة فائقة واهتماما كبيراً بالعلوم التجريبية ، فدرس الكيمياء والطب ، واهتم بالسياسة والدين وشارك فى الحياة العامة وعمل مربياً وطبيباً لجيلين من أشراف أسرة شافتسبرى وعاصر ثورتين فى بلاده .

---

(١) دكتور عزمى إسلام — چون لوك ص ٢١ ط دار المعارف ١٩٦٤ وراجع كتاب الدكتور محمود حمدى زقزوق دراسات فى الفلسفه الحديثة ص ١٩٦ ط الأولى عام ١٩٨٥ م

وفى عام ١٩٧١ سافر لوك إلى فرنسا وخالط الدوائر العلمية هناك وتأثر بفلسفه جاسندى .

وقد سافر مرة أخرى فى عام ١٦٧٥ إلى جنوب فرنسا لأسباب صحية فعاش هناك أربع سنوات .

وفى عام ١٦٨٣ لجأ إلى هولندا لأسباب سياسية وظل هناك ست سنوات إلى أن اعتلى العرش فى انجلترا الملك وليم أورانج « وليم الثالث » فأصبحت الظروف مواتية لعودته ، فعاد لوك إلى بلاده فى عام ١٦٨٩ وظل بها حتى نهاية حياته .

وقد اعتذر عن كثير من المهام التى أسندت إليه لأسباب صحية وعلى ضوء ما تقدم يعتبر چون لوك فى تاريخ انجلترا الفكرى والسياسى أحد زعماء النزعة التجريبية وأكبر رواد المعرفة .

كان الفيلسوف چون لوك أفضل المبشرين بحرية الإنسان وأصدق المناضلين فى سبيل شرفه وكرامته .

نزل عن عز الدنيا فدخل رحاب التاريخ وأغضب حكام بلاده ولكنه أرضى كل حر شريف .

وقد مرت حياة الفيلسوف التعليمية كما تبين فيما سبق بأدوار مختلفة وعلى سبيل المثال أنه كان ضيق الذرع بالطريقة المدرسية فى تدريس الفلسفة .
ولم يأنس لنفسه ميلا إلى هذا اللون من ألوان المعرفة إلا بعد أن قرأ فلسفة « ديكارت » فوجد فيها اختلافاً كبيراً عن فلسفة المدرسيين .

وقد كان لوك شخصية متعددة الجوانب والمواهب وقد كرس حياته لخدمه إخوانه فى الإنسانية ، داعياً إلى التسامح والمحبة ومكافحاً من أجل حقوق الإنسان وترسيخ قواعد الحرية والديمقراطية .

وحتى عندما اشتغل بالسياسة كان سياسياً أميناً . وقد عاش لوك اثنين وسبعين عاماً ، وعلى الرغم من تقدمه فى السن واعتلال صحته بصورة لازمته معظم سنوات حياته . فإنه كان يحس بشباب الروح وهذا ما يعبر عنه بقوله :

« إن جسدى — وهو الكوخ الصغير الذى أسكنه — ليتهافت حتى أخذت الريح تنفذ إليه خلال الشقوق أما ساكنه — وأعنى النفس — فما زالت شابة لم تغيرها السنون ، تتسوق إلى الانتقال إلى مسكن جديد[1] .

وعلى الرغم من هذه الحياة القلقة إلا أن چون لوك كان يغتنم كل فرصة مواتية ليسجل ما يوحى به فكره فى كتب ورسائل شغلت مكانها المناسب من دنيا الناس .

وفاته :

وقد توفى چون لوك — فى الثامن والعشرين من اكتوبر عام ١٧٠٤م[2] وقد ترك مصنفات كثيرة متعددة :

منها مقال فى العقل البشرى ، مهد فيه بنظرية المعرفه ومحاولة فى الفهم الإنسانى وهو من أكبر كتبه على الاطلاق وفيه بسط نظريته فى المعرفة ويتكون هذا الكتاب من أربع مقالات :

الأولى : فى الرد على القائلين بالمعانى الغريزية « المعارف الفطرية » .

---

(١) راجع دكتور محمود حمدى زقزوق دراسات فى الفلسفة الحديثه ص ١٩٦ نقلا عن أعلام الفلاسفة ص ٢٤٧

(٢) دكتور محمود حمدى زقزوق — المرجع السابق ص ١٩٧

الثانية : فى تقسيم المعانى إلى بسيطة ومركبة وبيان أصلها التجريبى .

الثالثة : فى اللغة ووجه دلالة الألفاظ على المعانى ومعارضة الفلسفة المدرسية .

الرابعة : فى المعرفة الممكنه أى فى اليقين الميسور لبنى البشر .

وللفيلسوف چون لوك مؤلفات أخرى كثيرة ولكن التركيز على ما كتبه فى الفلسفة وذلك لما له من وزن فكرى خاص فى نظرية المعرفة .

ويعتبر چون لوك هو أول من وضع النظرية التجريبية فى المعرفة فى صورة البحث المستكمل وإن كان لا يسلم بكفاية العقل بل يرى أن العقل عاجز تماماً عن تزويدنا بمعرفة أولية فطرية ، فكان فى موقفه هذا على نقيض ما يذهب إليه أنصار المذهب العقلى[1] .

وبعد ما ألمحنا إلى حياة چون لوك بهذا التعريف نتناول الحديث عن المعرفة ومعناها .

---

(١) براتراند رسل تاريخ الفلسفة الغربية الكتاب الثالث الفلسفة الحديثة ص ١٨٧ ترجمة د. محمد فتحى الشنيطى ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧ م

مدخل تمهيدى

تدور حول المعرفة الإنسانية مناقشات فلسفية حادة تمثل مركزاً رئيسياً فى الفلسفة وخاصة فى الفلسفة الحديثة إذ هى نقطة الانطلاق الفلسفى لإقامة فلسفة متماسكة عن الكون والعالم ، فما لم تحدده مصادر الفكر البشرى ومقاييسه وقيمه لايمكن القيام حوله بأية دراسة مهما كان لونها .

ولما كانت الألفاظ قوالب للمعانى فإننا سوف نقف هنا لبيان معنى المعرفة والفرق بينهما وبين العلم لما فى ذلك من أضواء فى تجلية الحقيقة وتثبيت خط سير البحث .

المعرفة : هى إدراك الشىء على ماهو عليه بتفكر وتدبر لأثره وهى مسبوقة بعدمه [1] .

أى أن المعرفة أخص من العلم ولذلك يسمى الحق تبارك وتعالى بالعالم دون العارف ويقال فلان يعرف الله ولايقال يعلم الله متعدياً إلى مفعول واحد ، وعرفه يعرفه معرفة وعرفاناً فهو عارف .

وقد يقال إن مفهوم العلم أخص من مفهوم المعرفة وذلك لأن مفهوم المعرفة لدى الفلاسفة قسمان :

معرفة عامية .. ومعرفة علمية .

والثانية أى المعرفة العلمية أعلى درجات المعرفة وهى التعقل المحض والمعرفة الكاملة [2] .

---

(١) الشريف الجرجانى ـ كتاب التعريفات ص ٢٢١ ط الأولى بيروت عام ١٩٨٤ وراجع المرجع السابق للدكتور جميل صليبيا .

(٢) دكتور جميل صليبيا المعجم الفلسفى ج ٢ ص ١٠٠ وراجع دكتور محمد غلاب المعرفة عند مفكرى المسلمين

وعلى ضوء هذا البيان فلا جدال فى أن لمبحث المعرفة أهميته وخطورته وإن تعددت فيه الآراء وتباينت وجهات النظر فى تحديد المشكلات التى تدخل فيه .(١)

ومهمتنا الآن أن نوجز هذه الآراء ، ونخلص فى نهاية الأمر بمفهوم واضح لقضية العلم والمعرفة .

ولو قارنا ماتناولناه الآن رغم مافيه من تضارب وتناقض مع العقل المستقيم والفطرة الصحيحة بمعطيات القرآن الكريم لوضح لنا صدق هذا الذى نذهب إليه ويمكن استخلاص هذه المعطيات القرآنية فى النقاط التالية :

---

(١) وذلك أننا إذا علمنا أن العلم عند أرسطو هو إدراك الكل وأنه لا علم إلا بالكليات . أدركنا أن غاية العلم هى الكشف عن العلاقات الضرورية بين ظواهر الأشياء وهى غاية نظرية بخلاف المعرفة العامية التى تتقيد بالنتائج العملية وتظل بمعنى ما معرفة جزئية .

ومعنى ذلك كله أن من شرط العلم أن يتضمن درجة كافية من الوحدة والتعميم وأن يكون بحيث يستطيع الناس أن يتفقوا فى الحكم على مسائله ، لا بالاستناد إلى أذواقهم ومصالحهم الفردية بل بالاستناد إلى ما بين هذه المسائل من علاقات موضوعية يكشفون عنها بالتدريج ويحققونها ويثبتونها بطرق محددة .

ولكل علم موضوع ومنهج يميزانه عن غيره ، إلا أن الفلاسفة يصنفون العلوم المختلفة ويرتبونها صنفاً صنفاً ليبينوا مابين موضوعاتها ومناهجها من تشابه ووحدة .

وعلى سبيل المثال فمن تصنيفات العلوم فى الفلسفة القديمة تصنيف —

. . . .

أرسطو الذى زعم أن عقولنا تطلب العلم للاطلاع أو الإبداع أو الانتفاع .

ولذلك انقسمت العلوم بحسب هذه الغايات الثلاث إلى :

١ — علوم نظرية كالرياضيات والطبيعيات .
٢ — علوم شعرية كالبلاغة والشعر والجدل .
٣ — علوم عملية كالأخلاق والاقتصاد والسياسة .

ومنها أيضاً تصنيف ابن سينا الذى قال : إن العلوم نظرية وعملية ، وإن كل قسم من هذين القسمين ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

فأقسام العلوم النظرية هى العلم الرياضى ، والعلم الطبيعى ، والعلم الإلهى .

وأقسام العلوم العملية هى الأخلاق وتدبير المنزل وتدبير المدينة

ومنها أيضاً تصنيف ابن خلدون الذى قسم العلوم إلى قسمين :

الأول : قسم العلوم العقلية ، وهى طبيعية للإنسان من حيث هو ذو فكر وتسمى بالعلوم الحكمية وتشتمل على أربعة علوم .

(المنطق ، والعلم الرياضى ، والعلم الطبيعى ، والعلم الإلهى) .

والثانى : قسم العلوم النقلية المستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعى وتشمل التفسير والحديث والقراءات وعلم الفقه وعلم الفرائض وعلم أصول الفقه وعلم الكلام وغيرها .

ومن تصنيفات العلوم فى الفلسفة الحديثة مايقوم على الملكات العقلية الضرورية لتحصيل العلم وهى ثلاث ملكات :

١ — العقل : وهو أساس العلوم الفلسفية .
٢ — التخيل : وهو أساس العلوم الشعرية .

الجانب الأول : أى من ناحية اللفظ :

فعل المعرفة يقع على مفعول واحد كما فى قول الحق تبارك وتعالى فى سورة يوسف :

« فعرفهم وهم له منكرون »[١].

وأما فعل العلم فقد يقتضى مفعولين كما فى قوله تعالى فى سورة الممتحنة

« فإن علمتموهن مؤمنات »[٢].

وقد يقتضى مفعولا واحداً وهنا يكون بمعنى المعرفة كما فى قول الحق تبارك وتعالى .

« وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »[٣].

الجانب الثانى : وأما الفرق من جهة المعنى فمن وجوه :

الأول : أن المعرفة تتعلق بذات الشىء والعلم يتعلق بأحوال الشىء والحكم عليه بالإيجاب أو السلب كما تبين فى صدر الحديث نقول عرفت معلمك وعلمته صالحا ، ولذلك جاء الأمر فى القرآن الكريم بالعلم دون المعرفة كقوله تعالى :

« فاعلم أنه لا إله إلا الله »[٤]. فالمعرفة حضور صورة الشىء ، والعلم

= ٣ — الذاكرة : وهى أساس العلوم التاريخية .

ومنها ما يقوم على الموضوعات التى تتناولها العلوم وهما قسمان :

١ — العلوم الكونية ، وموضوعها المادة .

٢ — العلوم المعنوية : وموضوعها الفكر وآثاره .

ولكل من هذين القسمين الكبيرين فروع كثيرة متعددة ومختلفة ، راجع دكتور جميل صليبيا المعجم الفلسفى ج ٢ ص ١٠٠ ط بيروت ١٩٨٢ م

(١) سورة يوسف الآية ٥٨ (٢) سورة الممتحنة الآية ١٠

(٣) سورة الأنفال الآية ٦٠ (٤) سورة محمد الآية ١٩

حضور أحوال الشيء وصفاته والمعرفة نسبة التصور، والعلم نسبة التصديق.

الوجه الثاني: أن المعرفة في الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه فإذا أدركه قيل: عرفه، أو تكون لما وصف له بصفات قامت من نفسه فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها قيل: عرفه، قال تعالى:

«ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم»[1]

وقال تعالى: «وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به»[2].

ومن هنا فالمعرفة تتضمن نسبة الأمر النفسي الذكر وهو حضور ماكان غائباً عن الذاكر، ولهذا كان ضدها الإنكار وضد العلم الجهل قال تعالى: «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها»[3].

ولذا يقال: عرف الحق فأقر به وعرفه فأنكره.

الوجه الثالث: أن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره والعلم يفيد تمييز مايوصف به عن غيره.

وهذا الفرق غير الأول حيث إن المراد فيه يرجع إلى إدراك الذات وإدراك صفاتها، وهذا يرجع إلى تخليص الذات من غيرها وتخليص صفاتها من صفات غيرها.

الوجه الرابع: إن المتحدث إذا قال «علمت محمداً لم يفد المخاطب شيئاً لأنه ينتظر أن يخبره على أي حال علمه فإذا قال: كريما أو شجاعا حصلت له الفائدة وإذا قال المتحدث عرفت محمداً استفاد المخاطب أنه أثبته وميزه عن غيره ولم ينتظر شيئاً آخر.

---

(١) سورة يونس الآية ٤٥

(٢) سورة البقرة الآية ٨٩

(٣) سورة النحل الآية ٨٣

الوجه الخامس : إن المعرفة علم بعين الشيء مفصلا عما سواه وهذا بخلاف العلم فإنه قد يتعلق بالشيء مجملا قال تعالى : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه »[١].

سير متصل :

وعلى ضوء هذا فالفرق بين العلم والمعرفة كما يرى المحققون أن المعرفة عندهم هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه ، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده ، ليس هذا فحسب بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالما بالله تعالى وبالطريق الموصل إليه وبآفاتها وقواطعها وله حال مع الله يشهد له بالمعرفة .

فالعارف هو من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ثم صدق الله في معاملاته[٢].

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥

(٢) وذلك بمعنى أن يلتزم بالمنهج الشمولي والتكاملي بدوائره المتعددة فيما بينه وبين خالقه وفيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين مجتمعه امتثالا لقول الله تبارك وتعالى :

«إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون» سورة فصلت الآية ٣٠».

وامتثالا لقول الرسول ﷺ .

قل آمنت بالله ثم استقم « صحيح مسلم كتاب الإيمان وهذا هو طريق المعرفة الحقة وذلك بأن يخلص العبد لله في قصوده ونياته ثم ينسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم يتطهر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته ، ثم يصبر على أحكامه في نعمه وبلياته ثم يدعو إلى الله على بصيرة بدينه وإيمانه .

راجع الفيروزابادى بصائر ذوى التمييز ج٤ ص ٢٥ تحقيق الأستاذ محمد على النجار ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٩ م .

وهذا هو ماينطبق عليه اسم العارف على الحقيقة كما يرى المحققون من أهل العلم والمعرفة .

وقد أثرت أن أتناول هذه النقاط لما لها من منافذ سوف نقف عليها وأحد تلك المنافذ مصادر المعرفة ومنابعها الأساسية .

ولكن إذا كانت هذه القضية لها كل هذه الأبعـــاد السالفة من جهة اللفظ ومن جهة المعنى فإننا سنحاول أن نقف على حقيقة الركائز الأولية للكيان الفكرى الذى تملكه البشرية وبذلك نجيب على هذا الاستفسار.

كيف نشأت المعرفة عند الإنسان ، وكيف تكونت حياته العقلية بكل ماتزخر به من أفكار ومفاهيم وما هو المصدر الذى يمد الإنسان بذلك السبيل من الفكر والإدراك .

إن الإنسان — كل إنسان يعلم أشياء وأموراً عديدة فى حياته وتتعدد فى نفسه ألوان من التفكير والإدراك ولا شك فى أن كثيراً من المعارف الإنسانية تنشأ بعضها عن بعض فيستعين الإنسان بمعرفة سابقة على تكوين معرفة جديدة ولاحقة .

والمسألة هى أن نضع يدنا على الخيوط الأولية للتفكير على الينبوع العام للادراك بصورة عامة ولا ضير فى ذلك لأن الأفكار الإنسانية تهاجر كالطيور من بستان إلى بستان؛ لأنها ملك مشاع لبنى البشر جميعا ولملكاتهم الناطقة وفى هذا مايساعد على إيجاد مناخ صحى للإدراك.

ونحن نعلم أن الادراك ينقسم إلى قسمين :

١ — تصور . وهو الإدراك البسيط الساذج كتصورنا لمعنى الحرارة أو النور .. أو الصوت .. أو تصورنا لمعنى الإنسان .

٢ — تصديق : وهو الإدراك المشتمل على حكم كتصديقنا بأن الحرارة طاقة و كالتصديق بأن النيل منبع لخيرات مصر .

التصور ومصدره الأساسى :

وأقصد هنا المصدر الحقيقى للتصورات والإدراكات البسيطة وذلك لأن الذهن البشرى يشتمل على قسمين من التصورات .

(أ) المعانى التصورية البسيطة كما فى معانى الوجود والحرارة .

(ب) المعانى المركبة : أى التصورات الناتجة عن الجمع بين تلك التصورات البسيطة فقد نتصور جبلا من تراب ونتصور قطعة من الذهب ثم نركب بين هذين التصورين فيحصل بالتركيب تصور ثالث وهو تصور جبل من الذهب وهكذا[١].

ونحن فى هذا المقام نحاول معرفة المصدر الحقيق لهذه المفردات وسبب انبثاق هذه التصورات البسيطة فى الإدراك الإنسانى .

ولبيان الأسس التى قامت عليها نظرية المعرفة لدى المفكر الانجليزى چون لوك لابد من بيان النظريات التى تقوم عليها المعرفة بوجه عام للوقوف على حقيقة المطلوب .

---

(١) راجع الأستاذ محمد باقر الصدر فلسفتنا ص ٥٢ ط الثانية ١٤٠٨ﻫ وراجع د. محمد غلاب المعرفة عند مفكرى المسلمين ص ١٧٤

أولا : نظرية الاستذكار الأفلاطونية

وهى النظرية القائلة إن الإدراك عملية استذكارية للمعلومات السابقة وقد اعتنق هذه النظرية أفلاطون وأقامها على فلسفته الخاصة وهذه النظرية ترتكز على قضيتين فلسفيتين :

(أ) أن النفس موجودة قبل وجود البدن فى عالم أسمى من المادة .

(ب) أن الادراك العقلى عبارة عن إدراك الحقائق المجردة الثابتة فى ذلك العالم والتى يصطلح عليها أفلاطون بعالم المثل[1] أى عالم الأصول الأبدية والثابتة التى لا يطرأ عليها الفساد .

ومن هنا اعتبر وجود هذه المثل أساساً لأى نظام يمكن أن يقيم عليه الحق والخير والجمال وهى تلك التى لا تطلعنا عليها الحواس بل الروح فقط عند تحررها من روابط الجسد .

وذلك لأن العلم يستمد قيمته من موضوعه وعلى هذا فالعلم بالمحسوسات لا يستحق أن يكون علماً حقيقياً لأنها متغيرة وإنما الذى يستحق لقب العلم هو العلم بالمثل تلك التى لا يطرأ عليها التغيير أو الفساد .

وهنا تصبح المعرفة على هذا ذات حلقات متتالية فى الوصول إلى المراد وعلى ضوء هذا فالحقيقة لا تنكشف إلا رويداً رويداً فهى تبدأ

---

(١) راجع المرجع السابق صـ ٤٥ ط الثانية ١٤٠٨ هـ .

بالحس ثم ترقى إلى الآراء الظنية ثم إلى الآراء الاستدلالية التى حدثت بواسطة البرهان الذى يصل من المقدمات إلى النتائج[١] .

ثانياً : النظرية العقلية

وتتلخص هـــذه النظرية فى الاعتقاد بوجود منبعين للتصورات :

أحدهما : الإحساس فنحن نتصور الحرارة .. والنور .. والطعم لأجل إحساسنا بذلك .

والآخر : الفطرة وذلك بمعنى أن الذهن البشرى يملك معانى وتصورات لم تنبثق عن الحس ، وإنما هى ثابتة فى صميم الفطرة فالنفس تستنبط من ذاتها وهذه التصورات الفطرية عند ديكارت هى فكرة الله والنفس والامتداد والحركة .

وقد اعتنق هذه الفكرة عدد من كبار فلاسفة أوربا — كديكارت وكانت — وهى عند الثانى الجانب الصورى للإدراكات والعلوم الإنسانية وهى فطرية بما تشتمل عليه .

وقالوا بأن الحس مصدر فهم للتصورات والأفكار البسيطة ولكن

---

(١) وعلى هذا يكون الموجود عنده على المراتب التالية :

أ) أعلاها المجردات فى عالم المثل .

ب) أحطها الوجود المشاهد فى عالم المحسوسات .

ﺣ) أوسطها الوجود الذهنى غير الخارجى .

ليس هو السبب الوحيد ، بل هناك الفطرة التى تبعث فى الذهن طائفة من التصورات[1] .

ثالثاً : نظرية الانتزاع

وتتلخص هذه النظرية فى تقسيم التصورات الذهنية إلى قسمين :

(أ) تصورات أولية .

(ب) تصورات ثانوية .

والتصورات الأولية هى الأساس التصورى للذهن البشرى وتتولد هذه التصورات بمحتوياتها بصورة مباشرة فنحن نتصور الحرارة لأننا أدركناها باللمس ، ونتصور اللون لأننا أدركناه بالبصر ، وهكذا جميع المعانى التى ندركها بحواسنا وتتشكل من هذه المعانى القاعـــدة الأولية للتصورات وينشىء الذهن بناء على هذه القاعدة التصورات الثانوية ويبدأ بذلك دور الابتكار والإنشاء وهو الذى تصطلح عليه هذه النظرية بلفظ « الانتزاع » فيولد الذهن مفاهيم جديدة وهذه المعانى خارجة عن طاقة الحس .

وذلك لأن الحس مجرد حاكم فقط وإن كانت هذه المعانى مستنبطة من المعانى التى يقدمها الحس إلى الذهن والفكر وهذه النظرية تتسق مع البرهان والتجربة وهى نظرية الفلاسفة الإسلاميين[2] .

---

(١) المرجع نفسه ص ٥٥

(٢) وعلى ضوء هذه النظرية نستطيع أن ندرك كيف تنبثق المفاهيم فى الذهن البشرى كظاهرة الغليان وغيرها .

رابعا : النظرية الحسية

وتتلخص فى أن الإحساس هو المصدر الوحيد والممون للذهن البشرى بالتصورات والمعانى والقوة الذهنية هى القـــوة العاكسة للإحساسات المختلفة والمتعددة فى الذهن .

وذلك بمعنى أننا حين نحس بالشيء نستطيع أن نتصوره — أى أن نأخذ صورة عنه فى ذهننا .

أما المعانى التى لا يمتد إليها الحس فلا يمكن للنفس ابتداعها وابتكارها ذاتياً وبصورة مستقلة .

وليس للذهن بناء على هـــذه النظرية إلا التصرف فى صور المعانى المحسوسة وذلك بالتركيب والتجزئه أى بأن يركب بين تلك الصور أو يجزيء الواحدة منها كالشجرة التى أدركها إلى قطع وأجزاء .

أو بالتجريد والتعميم بأن يفرز خصائص الصورة ويجردها عن صفاتها الخاصة ليصوغ منها معنى كليا .

والمبشر الأول بهذه النظرية التجريبية هو الفيلسوف جون لوك وقد بين ذلك فى كتابه « مقال فى العقل البشرى وقد حاول إرجاع جميع التصورات والأفكار إلى الحس وشاعت هذه النظرية بعد ذلك بين فلاسفة أوربا وقضت إلى حد ما على نظرية الأفكار الفطرية وانساق معها عدد من الفلاسفة حتى انتهت إلى فلسفات خطرة كفلسفة دافيد هيوم وباركلى ...[1] .

= فالذهن يبتكر على ضوء المعانى المحسوسة . راجع فلسفتنا للأستاذ محمد باقر الصدر ص ٦٢ ط الثانية ١٤٠٨ هـ ،

(١) الأستاذ محمد باقر الصدر فلسفتنا ص ٥٨ ط الثانية ١٤٠٨ هـ .

— أسس المعرفة عند جون لوك :

— يرفض جون لوك الفكرة القائلة بوجود معان غريزية أو معارف فطرية يولد بها بنو البشر أو يكون اتفاقهم عليها رغم اختلاف الأهواء والثقافات .

ويقرر أن عقل الإنسان يولد أشبه بصحيفة بيضاء لم ينقش فيها حرف قط ، ثم تتوالى عليه الصور وتطبع فيه المعارف بحكم ممارسة الحياة ويتم ذلك عن طريق مصدرين للمعرفة :

الأول : إتجاه تجريبى مصبوغ بالصبغة الحسية التجربة الظاهرة أو الخارجية .

الثانى : إتجاه عقلى مصبوغ بالصبغة المثالية الميتافيزيقية .

« التجربة الباطنة أو الداخلية الواقعة على أحوالنا النفسية[1] .

والمصدر الأول يقصد به تعلق الحواس الخمس الظاهرة بصور العالم الخارجى .

وأما المصدر الثانى : فيرجع إلى الذاكرة والإرادة والانتباه وبذلك تتم المعرفة عن طريق الإحساس والتفكير وهو لفظ يؤثره — لوك — على لفظ الشعور وليس هناك طريق آخر وراء هذين المصدرين .

---

(١) انظر تاريخ الفلسفة الحديثة للأستاذ يوسف كرم ص ١٤٠ ط الرابعة ١٩٥٨ م .

وراجع برتراند رسل تاريخ الفلسفة الغربية ص ١٨٧ . ترجمة دكتور محمد فتحى الشنيطى ١٩٧٧ م .

ويقول — چون لوك — إن الناس يمكنهم أن يصلوا إلى كل مالديهم من معرفة بواسطة استخدام قدراتهم الطبيعية فقط وبدون الحاجة إلى إنطباعات فطرية ، ليس هذا فحسب بل يمكنهم كذلك أن يبلغوا إلى اليقين فى القضية محل البحث بدون الاعتماد على هذه الأفكار أو المبادىء الأولية ، وعلى ذلك تكون نقطة الإنطلاق عند چون لوك هى هدم الأفكار الفطرية للمعرفة .

وهكذا لا يوجد شىء فى العقل إلا وقد سبق وجوده فى الحس حتى العقل نفسه نقل هو الآخر من معنى مادى حسى إلى معناه الخاص على سبيل المثال .

ويقول چون لوك إن المعانى فى نظرية المعرفة تنقسم إلى ثلاث أقسام :

١ — القسم الأول المعرفة الوجدانية :

وهى المعرفة التى لا يحتاج الفكر فى سبيل الحصول عليها إلى ملاحظة شىء آخر كمعرفتنا بأن الواحد نصف الإثنين أو الكل أكثر وأعظم من الجزء .

٢ — القسم الثانى : المعرفة التأملية :

وهى التى لا تحصل بغير استعانة بمعلومات سابقة كمعرفتنا بأن مجموع زوايا المثلث تساوى قائمتين .

٣ — القسم الثالث : المعرفة الناشئة من وقوع الحس على المعنى المعلوم : ويعتقد — چون لوك — بأن المعرفة الوجدانية معرفة حقيقية ذات قيمة كاملة من الناحية الفلسفية ... وكذلك المعرفة التأملية التى

يمكن توضيحها باستدلال صحيح ... ، وأما المعرفة الحسية فلا قيمة لها فلسفياً وإن كانت معتبرة فى مقاييس الحياة « العملية » :

ومن هنا لم يؤمن — لوك — موضوعياً بجميع خواص المادية المدركة بالحس بل اعتبر بعضها خواص حقيقية موضوعية كالشكل والحركة ... واعتبر بعضها الآخر انفعالا ذاتياً كاللون والطعم والرائحة وما إلى ذلك من صفات .

ولقد أشرت فى صـــدر البحث بأنه كان ضيق الذرع بالطريقة المدرسية فى تدريس الفلسفة ولم يأنس فى نفسه ميلا إلى هذا اللون من ألوان المعرفة إلا بعد أن قرأ فلسفة « ديكارت » وأن للمعرفة الإنسانية فيها وسيلتين حقيقيتين هما :

(الحدس ، والقياس)

والأول : أى الحدس هو ذلك النور الإلهى والغريزة العقلية التى بها نستطيع أن ندرك الأفكار البسيطة لفكرة الحركة والامتداد والحقائق الثابتة مثل أنا أشك فأنا أفكر فأنا موجود والعلاقات الواضحة بين قضية وأخرى .

والقياس : عنده هو إثبات قضية ما بواسطة المبادىء العامة التى تترتب عليها ومعنى ذلك أنه يضع فى اعتباره عموم المبادىء وصحتها لا مجرد تسليم المقدمات من الخصم فالأفكار الفطرية عند « ديكارت » غريزية بمعنى أنها ليست مستفادة من الحواس ولا مركبة بالإرادة وإنما مرجعها إلى ما فينا من قوة على الفكر فهى أحوال ذهنية موجودة فى النفس قبل أى تجربة وهى ليست مطبوعة فى الذهن كأبيات الشعر فى الديوان ولكنها فيه بالقوة ويضرب ديكارت مثلا للأفكار الفطرية « بالكوجيتو »

فيقول « أنا أشك فأنا أفكر فأنا موجود . وليس المراد بالوجود هنا الوجود الحسى وإنما هو وجود الفكر فمعنى أنى أفكر هو أنى أشك واتعقل وأحس وأتخيل هذه الظواهر النفسية التى تفيد الفكر لأننا ندركها إدراكاً مباشر، وهذ المعرفة فطرية لأننا لم ندركها بالحواس ولم نبرهن على صحتها بالقياس أو الاستقراء بل أدركناها بنوع من الغريزة الفطرية العقلية وهى الحدس العقلى .

وحيث إن العقل السليم عند ديكارت هو أعدل الأشياء قسمة وتوزيعا بين الناس فإن هذه المعارف الفطرية بالإضافة إلى أنها ثابتة وضرورية فهى كذلك لابد أن تكون عامة .

وذلك بمعنى أن كافة العقول الإنسانية يكفى أن تعرفها بهذا الحدس العقلى ولست هنا بصدد عرض ميتافيزيقا ديكات وإنما نوضح المنهج الديكارتى فى مبحث المعرفة إذ إنه هو أول من وضع أسس المذهب العقلى أما چون لوك فقد رفض هـــذه النظرية فى كتابه مقال فى العقل البشرى لا بغية للبحث فى ماهية العقل بل لدراسة الخطوات المختلفة التى يقطعها العقل فى اكتسابه للمعرفة .

وبالبحث والنظر نرى أنه لم يكن رفضه لمجرد إحلال مذهب محل آخر بل أقام رفضه على أساس من المناقشة وتفنيد الحجج والبراهين .

قائلا : إن هناك اعتقاداً قوياً ثابتاً عند بعض الناس بوجود المبادىء الفطرية أو الأفكار الأولية تلقتها الروح منذ وجودها وجاءت بها إلى هذا العالم .

ثم يقول : يكفى أن أقنع القارىء غير المتحامل بكذب هذا الاعتقاد وأن أبين له كيف أن الناس يمكنهم أن يصلوا إلى كل مالديهم

من معرفة بواسطة استخدام قدراتهم الطبيعية فقط وبدون الحاجة إلى انطباعات فطرية [و]بعد أن بين — لوك — مشكلة المعارف الفطرية يقوم بتناول الحجة الأولى وهى حجة الإجماع ويرفضها ، ويقول فى رفضه إنها ليست صحيحة ويفند هذه الحجة بتقسيمها إلى قسمين :

١ — عمــلى ٢ — نظرى

أما الجانب العملى : فخاص بالأخلاق والدين مثــل أنه تجب عبادة الله .

والجانب الثانى : أى النظرى فهو مثل مبدأ الذاتية ومبدأ عدم التناقض ...

ويقول : إنى أعتقد أن هذه المبادىء لاتحظى بالموافقة الإجماعية لأنها ليست معروفة لعدد كبير من الأفراد ويسوق دليلا على ذلك أن الأطفال والمجانين لايعرفونها وهذا كاف فى نظره لنقض تلك الحجة — إذ كيف لايدركها هؤلاء مادامت مطبوعة فى عقولهم والواقع على خلاف ذلك فأصحاب المذهب الفطرى يذهبون كما تبين فيما سبق إلى أن هناك أفكاراً قائمة فى العقل قبل الملاحظة والتجربة ونسلم بها جميعاً لبداهتها مثل مبدأ عدم التناقض والذاتية السالفين الذين تحــدث عنهما — چون لوك — فالشىء الواحد لايمكن أن يشغل مكانين مختلفين فى آن واحد ، وفكرة الله .

وقد بين لوك : أن هذه الأفكار ليست فطرية كما يتوهم هؤلاء ذلك لأن كثيراً من الناس لا يسلمون بها تسليما أوليا ، وكثير من الناس قد لايعتقدون فيها إطلاقا فنجد الطفل أو المخبول أو البدائى يتبع فى تفكيره أسلوباً متنافياً مع المنطق ويعتقد أن الشىء يمكن أن يوجد فى مكانين مختلفين فى آن واحد كما أن فكرة الله ليست كذلك فطرية

بدليل أن مدلولها يختلف باختلاف الشعوب والبيئة والثقافة فهي من ثم مكتسبة عنده من التجربة والبيئة [1] .

وقفة نقدية :

وهنا يتضح أنه قد خلط بين المعرفة الفطرية والإدراك وهناك اختلاف تام بينهما ونحن نقول كما يقول أستاذنا الدكتور محمود حمدى زقزوق: أنه من الأسباب التى أودت بجون لوك وبالتناقض بين آرائه إعتماده على أقوال كتاب الرحلات وعلماء الأجناس فى اختلاف التصورات لدى مختلف الشعوب ليؤكد مايريده من إبتكار للأفكار الفطرية ، وهذه الأقوال نسبية ، كما أنها تصطبغ لدى كتاب الرحلات على وجه الخصوص بصبغة ذاتية يضيفها الكاتب على مايراه فى كثير من الأحيان ، فهى انطباعات أكثر منها معارف فلسفية معتبره ، فضلا عن أن الأخلاق لاتعتمد على ما هو كائن أو واقع فى مجتمع من المجتمعات ولايمكن أن تستمد من هذا الواقع لأنها تعبير عما ينبغى أن يكون ، وما ينبغى أن يكون لايستمد ولايؤخذ عما هو كائن وإلا كان ذلك قلباً للأوضاع [2] .

وعلى هذا فالأفكار الهابطة لايحفل بها أحد ولا يكون لها صدى فى عالم الفكر ونلمس هذا فى قوله التالى للتدليل على وجهة نظره فى هدم

---

(١) راجع جون لوك للدكتور عزمى إسلام وراجع أيضا له تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٤٦ وراجع دكتور محمد عبد الرحمن بيصار تأملات فى الفلسفة الحديثة ص ١٢١

(٢) دكتور محمود حمدى زقزوق دراسات فى الفلسفة الحديثة ص ٢١٥

الأفكار — الفطرية أيضاً حيث يقول : إن الأولياء لدى الأتراك — ويعنى هنا المسلمين . يسلكون سلوكا لايمكن أن يتحدث عنه المرء بدون جرح للأدب ...

وينقل عن الرحالة الألمانى — باومجارتن — مايزعم هذا الرحالة أنه شاهد من عادات لدى المسلمين فى رحلاته عام ١٥٠٧ فى مصر وبلاد العرب وفلسطين . ويروى هذا الرحالة قصصاً يزعم أنه شاهدها فى مدينه بلبيس بمصر من إعتقاد المسلمين بأن البلهاء والمعتوهين يعدون من أولياء الله ،وأنه شاهد أحد هؤلاء يجلس عارياً كما ولدته أمه تحت كومة من الذباب والزنابير ويقترف الفواحش مع الحيوانات ، وأنه سمع أن مثل هؤلاء الأولياء يتمتعون بحرية لاحد لها تصل إلى حد إرتياد البيوت واقتراف الفواحش داخل البيوت ، ولا يعد ذلك أمراً منكراً بل يعتبر من الأمور التى تجلب البركة ، وإذا نتج عن اقتراف هذه الفواحش أطفال يعتبرون أيضاً مباركين ويتبرك الناس بهم وتقام لمثل هؤلاء بعد موتهم أضرحة فاخرة ...... إلى آخر هذه المزاعم [1] التى هى مجافية للصواب والحق .

ونحن نقول لجون لوك — إن المحققين قد تكلموا فى المعرفة بآثارها وشواهدها وقبل أن نعرض لذلك ينبغى أن نقف علــى أسس المعرفة التى يقدمها القرآن الكريم كتاب الله المقروء كما ندركها فى كتاب الله المنظور .

أسس المعرفة فى القرآن الكريم .

ومن عجيب الموافقات أن أسس المعرفة فى القرآن الكريم هى أول مانزل من القرآن الكريم ، وذلك أنها موجودة فى قول الله تبارك وتعالى «اقرأ باسم ربك الذى خلق ،خلق الإنسان من علق، أقرأ وربك الأكرم

(١) المرجع السابق

الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ... ثم بعد أن يبين الحق تبارك وتعالى أسس المعرفة تأتى تتمتها فى قــوله تعالى إثر ذلك « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى» [١] .

وبيان ذلك أن هذه الآيات تقول لنا :

إن المعرفة لايعثر عليها فى أعماق النفس البشرية ذاتياً وفى هذا إشارة — كما يقول أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود — إلى أن المعرفة الحسية موقوفة على تدبير من الله سبحانه وتعالى فلقد أثبت العلم الحديث أن المعرفة الحسية لاشأن لها بما يسمى الشىء فى ذاته ، وإنما هى هذه الأشياء كما تؤثر فى حواسنا فحسب وبما أن الحواس قد خلقها الله سبحانه وتعالى على نحو معين دون غيره فإنه سبحانه يحدد لنا بذلك وجه التأثر بالحواس من هذه الأشياء وعلى ذلك يمكن القول بأن معارفنا الحسية تنفذ إلينا من خلال إرادة إلهية وتدبير إلهى [٢] .

واجتهاد بشرى تمثله كلمة اقرأ — وهذا الإجتهاد لايقوم به الإنسان مستقلا وإنما يقوم به باسم الله .

وباسم الله لاتعنى مجرد البركة ، وإنما تعنى الاستمداد فهو اجتهاد يستمد مبادئه ووسائله وغاياته من الله ولبيان المقصود من كون المعرفة اجتهاداً بشرياً مستمداً من الله تبارك وتعالى ، تذكر الآية نظير ذلك فى حياة الإنسان وهو خلق الله للإنسان فى قوله تعالى «الذى خلق .. وعلى هذا فالإنسان لم يعثر عليه فى الطبيعة ، ولم يصدر عن العلة الأولى بطريق الفيض ولكن الله هو الذى خلقه .. خلقه من بداية صغيرة» خلق

---

(١) سورة العلق الآية ٨

(٢) دكتور عبد الحليم محمود المؤتمر الخامس لمجمع البحوث بحث بعنوان الإسلام والعلم ص ٥١٧ ط ١٩٧٠ م وراجع دكتور يحى هاشم مداخل لدراسة العقيدة الإسلامية

الإنسان من علق ، أى دم جامد وهذا يوضح لنا كمال قدرته تعالى بإظهارها بين حالتيه الأولى والأخرة من التباين البين .

وعن الزمخشرى أن المناسب أن يراد خلق الإنسان بعد الأمر بقراءة القرآن تنبيهاً على أنه تعالى خلقه للقراءة والدراية كما أن ذكر خلق الإنسان عقيب تعليم القرآن أول سورة الرحمن لنحو ذلك .[1]

ولقد صاحب هذا الخلق جهد بشرى ضئيل ، بجرد مصاحبة لإيقاظ منبهات الفطرة فى الادراك وإقامة دوائر بناء الدين فى ذات الإنسان بالإلزام والمسئولية والجزاء ، وهكذا الأمر فى المعرفة .

فهل خلق الله الإنسان وتركه دون أن يعلمه ؟ .

ذلك لا يتفق مع وصفى الربوبية والكرم أو الأكرم . وذلك ما تقوله الآية التالية « اقرأ وربك الأكرم » ، والنتيجة إذن فى الآية الرابعة « الذى علم بالقلم » أى علم ما علم بواسطة القلم لا غيره تعالى .

فكما علم سبحانه القارىء بواسطة الكتابة بالقلم يعلمه بدونها — وحقيقة الكرم إعطاء ما ينبغى لا لغرض فهو صـــفة لا يشاركه تعالى فى إطلاقها أحد[2] .

فهو الذى علم ، كما أنه هو الذى خلق .

وإذا كان الخلق من الله تعالى مع مصاحبة جهد بشرى ضئيل بجرد مصاحبة فإن التعليم من الله مع مصاحبة جهد بشرى ضئيل أيضاً هو الإمساك

---

(١) أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى .
روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم .
والسبع المثانى جـ ٣٠ ص ١٨٠ .
ط دار إحياء التراث العربى بيروت .

(٢) المرجع السابق .

بالقلم والقراءة وهذا ماتوقفنا عليه الآيات السابقة وكما هو فى حديث البخارى عن عائشة رضى الله عنها .

أن جبريل لما جاء إلى النبى ﷺ — بغار حراء فقال له : إقرأ — قال .. ما أنا بقارىء ؟.

أخذه وغطه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله وقال له : اقرأ .. قال .. ما أنا بقارىء ؟

وأخذه فغطه الثانية ، حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله وقال له.. اقرأ.

قال ما أنا بقارىء ؟ فأخذه وغطه الثالثة حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله فقال له .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، أقرأ وربك الأكرم » فرجع بها رسول الله ﷺ .

وقوله ما أنا بقارىء؟ أى ما أستطيع القراءة ولم أتعلمها كما هو المعتاد فيمن يتعلم .

وفى هذا المقام قيل إن ما الأولى : امتناعية .

والثانية : نافية .

والثالثة : استفهامية .

وفى هذا إشارة إلى قوله تعالى :

« وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً »[1] .

وهنا نقف لنرى علم الله للإنسان ؟

هذا ما نجده فى قوله تعالى : « علم الإنسان ما لم يعلم » فى البداية

---

(١) سورة النساء الآيه ١١٣ وراجع المرجع السابق .

وفى الوسط وفى النهاية . أى علمه الأشياء التى لم يتعلمها والأشياء التى لم يعلمها أصلا . أو التى لم يتعلمها فى الحقيقة بنفسه وإن كان قد صحب عملية تعلمها جهد بشرى ضئيل وهذه العلوم نجدها فى البداية وفى العلوم الضرورية ويلحق بها أدوات المعرفة .

— وفى الوسط : فى إفاضة هدى الله على جهد الإنسان فى مسالك الوصول إلى النتائج .

— وفى النهاية : فى إفاضة اليقين لجبر ثغرات الظن فيما يتعلق بالوثوق بالنتائج .

ثم تبين الآيتان التاليتان أن استقلال الإنسان بالتعلم أو بالعلم ، انحراف عن مصدر التعليم .

«كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » .

ثم تبين الآية الأخيرة فيما ذكرناه أن المرجع فى المعرفة هو الله « إن إلى ربك الرجعى »[1] .

وعلى هذا فالإنسان لم يعثر على المعرفة ولكن الله هو الذى أعطاه إياها . أعطاه بذرتها منذ البداية فى البدهيات أو العلم الضرورية وصاحب نمو هذه البذرة إجتهـاد بشرى مشروط بالاستمداد من الله تعالى وتلك هى سنة الله فى المعرفة كما هى سنته فى الخلق وكما هى سنته فى الرزق وما إلى ذلك .

وفى هذا المقام نذكر بعض الآيات القرآنية التى تزيدنا إيضاحاً وتوثيقاً من ذلك قوله تعالى :

---

(١) سورة العلق الآية ٨

« وعلم آدم الأسماء كلها »[1] وقوله تعالى :

« قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا »[2] .

وقوله تعالى : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء »[3] .

ومن هنا أمر الله أعلم العباد وأكملهم أن يسأل الحق تبارك وتعالى عن العلم فقال : « وقل رب زدني علماً »[4] .

وإذن فالنتيجة النهائية أن مصدر المعرفة هو الله وهو مصدر قريب قال تعالى : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب »[5] وقال تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »[6] .

هذا هو أصل المعرفة بوجه عام كما نراه في القرآن الكريم[7] كتاب الله المقروء والمفسر والموضح لكتاب الله المنظور الكون ومافيه .

وقد قال الله فيما بعد عن هذا الدستور « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »[8] .

وقال الله تعالى : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »[9] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٣١ (٢) سورة البقرة الآية ٣٢

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥ (٤) سورة طه الآية ١٤٤

(٥) سورة البقرة الآية ١٨٦ (٦) سورة ق الآية ١٦

(٧) يراجع الدكتور يحيى هاشم في أسس المعرفة التي يقدمها القرآن الكريم في كتاب مداخل إلى العقيدة الإسلامية ص ٧—١٤

(٨) سورة هود الآية ١

(٩) سورة فصلت الآية ٤٢

وهو الحق سبحانه وتعالى الذى خلق ! !

ذلك الذى خلق قد كون كل خلية فى الجسم ونسقها مع غيرها لتؤدى ما ينبغى أن يكون وهذا الذى فصل ذلك محيط علماً بالإنسان المرئى وهذا المنهج الشامل ليس ممن لا صلة له بالمخلوق وإنما هو منهج الخالق نفسه الذى أحاط بدقائق الخلق وأحكم ما يحتاج إليه خلقه .

ومن هنا كان لهذا المنهج العام الشامل للعلم والمعرفة والذى لا يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة لأن الإنسان هو الإنسان أينما وجد وأينما كان ولم يتبدل خلقاً بخلق ولا تركيباً بتركيب .

وعلى هذا يرى الباحث أن الإسلام فى شموله قد وضع أسس المعرفة البشرية التى تهدى بنى البشر جميعاً إلى الطريق الصحيح بالتكامل بين الحواس والإدراك والفطرة .

وهذا منطق الخلق كما هو منطق العلم والمعرفة.

قال تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »[١] .

---

(١) سورة الأنعام ١٥٣

عودة إلى وقفتنا النقدية :

وبعد فلنعد إلى أقوال المحققين فى المعرفة بآثارها وشواهدها لما فى ذلك من رد على رائد نظرية المعرفة چون لوك . فى إنكاره للمعارف الفطرية وافترائه أن البلهاء والمعتوهين يعدون من أولياء الله ...

ونحن نقول له كما قال المحققون بعد أن وقفنا على أسس المعرفة فى كتاب الله تعالى وأن الله هو الذى علم كما أنه هو الذى خلق وهـــذه هى الحقيقة التى يحتاج العقل فيها إلى الإيمان لكى يقوم ، ولا يتطلب الإيمان إلا مصاحبة العقل بمجرد مصاحبة للتلقى وتلك هى سنة الله كما تبين فيما سبق إذ لا تنبنى الثقة على التجربة أو الحواس كما لا تنبنى على العلوم الضرورية العقلية وإنما هى تنبنى على منطق أخر منطق الضرورة العملية ، والتعرض للإنذار بعذاب الآخرة وهـــذا هو طريق الأولياء الذين استشهد بهم چون لوك فى دعواه . من واقع أقوال كتاب الرحلات وعلماء الأجناس البشرية .

ولذا فمن الضرورى أن نبين موقف هؤلاء القوم من العلم والمعرفة بصفة عامة ثم نعود إلى التفصيل فى هذه القضية .

إذ من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته .

وقالوا أيضاً : المعرفة توجب السكينة وقيل علامتها أن يحس العارف بقرب قلبه من الله فيجده قريباً منه . ولذا يقول سهل بن عبدالله التسترى: «إياكم وعمل العلماء الظاهر وعليكم بعلم العلماء . وذلك لأن الإنسان لا يصل

بالحس إلى شيء أرفع من المحسوسات المادية وقد يرتقى بعقله إلى شيء مما يدركه الحس . ولكنه لا يتجاوز نطاق المحسوسات[١] .

وهذا يوقفنا على تناقض چون لوك فى إدراك حقيقة العارف — كما سئل سهل عن أولياء الله عز وجل فقال : هم الذين يتبعون أمر الله وينتهون عما نهى الله عنه . ويتبعون آثار رسول الله ﷺ مكانهم مكان العالم والقدوة ، وحالاتهم التفويض والتسليم وحركاتهم بحوله وقوته . فقيل له : العالم بالله هل يكون له ذنب ؟ قال : دع العلماء ، انظر كيف حالك . سل العلماء حتى يقولوا لك الحق[٢] .

لا ما يدعيه عليهم چون لوك فى زعمه القائم على غير أساس وأنهم يدعون البركة الشكلية والمموهة بمعاداة العلم والبعد عن الصواب .

ونحن نقول له فى هذا المقام ما قاله أحد هؤلاء القوم: أنه دخل رجل على سهل بن عبد الله التسترى ومعه محبرة فقال له سهل : ماذا تكتب ؟ قال : أكتب العلم .. قال : اكتب ، وإن استطعت ألا تموت إلا وأنت تكتب فافعل .. فقال له الرجل : فحدثنى ما أكتب به عنك . قال اكتب : الدنيا كلها جهل إلا ما كان علما ، والعلم كله حجة إلا ما كان عملا ، والعمل كله موقوف إلا ما كان إخلاصا[٣] .

وفى هذا أيضاً ما يدحض آراء بعض الدارسين وظنهم معاداة الصوفية

---

(١) حسن كامل الملطاوى الصوفية فى الهاماتهم ط المجلس الأعلى ١٩٦٩ م

(٢) سهل بن عبد الله التسترى — من التراث الصوفى المعارضة والرد تحقيق دكتور محمد كمال جعفر ص ١٢٦

(٣) سهل بن عبد الله التسترى من التراث الصوفى ص ٧٦

للعلم والمعرفة ولا نريد أن نعيد ما سبق أن أكدناه فى هذا المقام وإنما نضيف إلى ما سبق أن ما بيناه من الفرق بين المعرفة والعلم ما يجلى هذه القضية لدى هؤلاء القوم وذلك فى النقاط التالية :

الأولى : أن المعرفة لب العلم ، ونسبة العلم إلى المعرفة كنسبة الإيمان إلى الإحسان وهى علم خاص متعلقه أخص من متعلق العلم وأدق .

الثانية : أن المعرفة هى العلم الذى يراعيه صاحبه ويعمل بموجبه ومقتضاه . أى هو علم تتصل به الرعاية .

الثالثة : أن المعرفة شاهدة لنفسها وهى بمنزلة الأمور الوجدانية لا يمكن لصاحبها أن يشك فيها ولا ينتقل عنها ، وكشف المعرفة أتم من كشف العلم على أن مقام العلم أعلى وأجل كما ذكرنا فيما تقدم [1] .

فأساس العلم والمعرفة تقوى الله فكلما زاد الإنسان فى تقواه كلما تيسرت له أسباب العلم والمعرفة لقوله تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله »[2] .

وهذا القول الكامل الشامل يوقفنا على أن العلم يشمل علم الشريعة والمعاملات وعلم النفس ، والعلم بذات الله وصفاته ومما يؤيد ذلك قول صاحب التعرف لمذهب أهل التصوف فى تصنيف العلم .حيث يقول :

وأول تصحيح الأعمال : معرفة علومها وهى علم الأحكام الشرعية من أصول الفقه وفروعه : من الصلاة والصوم وسائر الفرائض : إلى

---

(١) الفيروزابادى بصائر ذوى التمييز حـ ٤ صـ ٩٣

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٢

علم المعاملات . من النكاح والطلاق والمبايعات وسائر ما أوجب الله تعالى وندب إليه ومالاغناء به عنه من أمور المعاش .

وهذه علوم التعلم والاكتساب فأول مايلزم العبد الاجتهاد فى طلب هذا العلم وأحكامه على قدر ما أمكنه ووسعه طبعه ، وقوى عليه فهمه بعد إحكام علم التوحيد والمعرفة على طريق الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح عليه ... ، وأول ما يلزمه علم آفات النفس ومعرفة رياضتها وتهذيب أخلاقها ، وهذا العلم علم الحكمة . فإذا استقامت النفس وتأدبت بآداب الله عز وجل من ذم جوارحها وحفظ أطرافها وجمع حواسها ، سهل عليه إصلاح أخلاقها وتطهير الظاهر منها ... فعند ذلك يمكن للعبد مراقبة الخواطر وتطهير السرائر ، وهذا هو علم المعرفة[1] .

ولذا يعقد الإمام الغزالى موازنة بين كيفية حصول العلم الحسى فى القلب وحصول الإدراك الخارج عن مدركات الحس . ويمثل القلب بحوض محفور فى الأرض معرض لأن يأتى إليه الماء من ظاهر الأرض عن طريق جداول صغيرة تصب فيه ويحتمل أن يحفر أسفله إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافى فيتفجر الماء من أسفل الحوض فيكون ذلك الماء أصفى وأدوم . وقد يكون أغزر وأكثر فذلك الماء هو العلم ، وتلك الجداول هى الحواس الخمس وهما مثال العلم الحسى وطريقة تحصيله أما ذلك الحفر وهذا الماء الذى نبع من باطن الحوض فهما كالعلم الذوقى وطريقه تطهير القلب[2] .

---

(١) الكلاباذى التعرف لمذهب أهل التصوف تحقيق محمد أمين النواوى ص ١٠٥ ط الثانية ١٩٨٠ م

(٢) الإمام الغزالى إحياء علوم الدين ج ٣ ص ١٩

وراجع معيار العلم أيضاً فى هذه القضية حيث أن مراجعته لاتخلو من فائدة .

كما هو لدى أصحاب الاتجاه الصوفى فالقلب يقبل كلا الطريقين وذلك أنه من الممكن أن تساق العلوم إليه بواسطة أنهار الحواس . والاعتبار بالمشاهدات حتى يمثلها علماً ويمكن أن تسد هذه الأنهار بوسائل المجاهدة العملية التى انفرد بها أصحاب هذا الاتجاه الصوفى أى بالخلوة والعزلة وغض البصر ، ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره . ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله[1] بالتماس القلب دوام المحاضرة عما دارته الغيوب .

ومصداق ذلك قول الله تبارك وتعالى :

« إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »[2]. أى هو حاضر فالكشف الحق هو القائم على الكتاب والسنة وهو السبيل إلى المعرفة الوجدانية لدى هؤلاء القوم كما تقدم لا مايدعيه عليهم — چون لوك — رائد نظرية المعرفة .

وحينئذ يتحقق لدى السالك نوع من العلم اليقينى الشامل لوسائل المعرفة التى فطر الله الخلق عليها وذلك لأن طريق الحس والعقل فى الإدراك يؤديان إلى نتائج متعارضة بخلاف طريق التصفية الذى يؤدى إلى نتائج متحدة .

ودليلنا على هذا أنه لتحصيل العلم طريقان الأول التعليم الإنسانى والثانى التعليم الربانى وهو على وجهين :

---

(١) راجع دكتور عامر النجار ، التصوف النفسى ص ٦٩
وراجع الإمام الغزالى المرجع السابق .

(٢) سورة (ق) الآية ٣٧ وراجع السراج الطوسى كتاب اللمع ص : ٤١٢

الوجه الأول : يكون من خارج وهو التعليم بالقاء الوحى .

والوجه الثانى : الإلهام من الله تعالى لأوليائه وعلى هذا نستطيع أن نقول : إن كل علم من العلوم الإنسانية يمكن تحصيله والإحاطة بحقائقه لكل من يطلبه ولو كان منافقاً أو مشركا إذا رغب فيه وحرص عليه لأن العلوم نتيجة الذهن وثمرة العقل وحصيلة التجربة ولكن ذلك لا ينطبق على علم الأولياء أو علم الإيمان واليقين لأن هذا العلم كما يقول صاحب قوت القلوب :

« ثمرة التقوى والعبادة والإنابة » ولذلك لايصل إليه إلا مؤمن موقن وهذا يدل على فضل علم الأولياء على ماسواه [١] .

ولذا كان مفهوم العلم فى الإسلام لدى هؤلاء القوم أى الصوفية قائماً على الشمول الذى يتصف به الاسلام فى تعاليمه التى تعم بالبيان ماهو كائن من حقائق الوجود ، وماينبغى أن يكون فى حياة الانسان .

وما هذا إلا لأن العقل الإسلامى نتيجة الإيمان قد اكتسب من هذه الحقيقة صفة تأصلت فيه حتى لتشبه أن تكون من طبعه تلك هى سمة الشمول والتكامل .

وبهذا المعنى نشأ مفهوم العلم والدعوة إلى تحصيله ولذا قال الله تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »[٢] .

وقال — ﷺ — : « من سلك طريقاً يطلب به علماً سهل له طريقاً إلى الجنة »[٣] .

---

(١) أبو طالب المكى قوت القلوب .
(٢) سورة المجادلة آية ١١
(٣) أخرجه السيوطى فى كتاب الفتح الكبير .

ومن هنا يتضح لنا أن المعرفة الصوفية أو العلم لدى هؤلاء القوم عبارة عن وصول المعلوم إلى القلب .

وقلب الإنسان يشبه المرآة تختلف صفاء وكدرة باختلاف بنى البشر ولكنها قابلة لكى تنطبع عليها صور الأشياء وللقلب وسائله فى الاطلاع على العالم الخارجى فالحواس والعقل والتفكير أدوات ونوافذ تصل عن طريقها صور الأشياء إلى القلب[1].

ومصداق ذلك قول الله تبارك وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا »[2] .

ويفسر القوم الفرقان بأنه النور الذى يجعله الله فى قلوب المتقين فيفرقون به بين الحق والباطل . واليقين الذى يميزون به بين الشبهات والمشكلات[3] .

والفرقان هو المخرج الذى ضمنه الله تعالى لأهل التقوى فى قوله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب »[4] .

فهذا الرزق هو العلم بغير تعلم والفطنة بغير تجربة جزاء وفاقا على ما قدموا من خير وعمل صالح[5] .

---

(١) الإمام الغزالى إحياء علوم الدين .

(٢) سورة الأنفال آية ٢٩

(٣) أبو طالب المكى قوت القلوب .

(٤) سورة الطلاق آية ٣

(٥) راجع الإمام الغزالى الاحياء ح٣

وهذا يدعونا فوق ماتقدم إلى الوقوف علـى الأساس المعرفى لأصحاب السلوك الصوفى للتحقق من بيـان مايدعيه عليهم رائد نظرية المعرفة .

وسيلة المعرفة لدى الصوفية :

ويتضح ذلك ببيان الفرق بين المعرفة الحسية والمعرفة العقلية والعلاقة بينهما وما إذا كانت هناك معرفة أخرى يصل إليها الإنسان عن طريق آخر غير الحواس والعقل .

أم أن المعرفة قاصرة على الحس والعقل ؟.

ويتبين ذلك فى موقفهم من الأساس المعرفى .

ولذا فمن الضرورى أن نتبين موقف الصوفية من العلم :

العلم إما أن يفيد بحثاً عن الطاب وحثاً عليه . وإما أن يفيد كيفية العمل ووجهه . وإما أن يفيد أمراً وراء ذلك خبرياً يهدى إليه :

فالأول : من علوم القوم . علم الوعظ والتذكير .

والثانى : علم المعاملات والعبودية .

والثالث : علم المكاشفة .

— فالأول : دائر فى قوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

— والثانى : دائر على قول الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

— والثالث : راجع لقوله تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله .

وقول الرسول — ﷺ « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم »[1] .

ومن هذا القول الشامل يتضح أن وسيلة المعرفة لدى أصحاب الاتجاه الخلقي الصوفي تنبع مما قررته النصوص الإسلامية ، وكما يقول الدكتور محمد أحمد مصطفى من موقف نقدي يبين حدود ووظائف قوى المعرفة الثلاث :

(الحس والعقل والبصيرة)

الأمر الذي أدى إلى : انقسام بني البشر إلى حسيين وعقليين و بصريين أي أن كل طائفة تمسكت واتسمت بما أدركت .

ولهذا نرى في كل زمان هذه الاتجاهات المتعددة[2] ، حيث تختلف المعرفة الإنسانية لدى بني البشر كما تبين فيما سبق ، من ناحية آلاتها ، ومن ناحية قيمتها وثباتها ومن ناحية فرديتها أو عمومها وشمولها ، ومن ناحية مصدرها[3] .

الأمر الذي يدعو إلى الوقوف على أهمية السؤال السابق في بيان الفرق بين المعرفة الحسية والمعرفة العقلية ليس هذا فحسب بل بيان العلاقة بينهما وهل هناك معرفة يصل إليها الإنسان عن طريق آخر غير الحواس والعقل ؟ وبيان ذلك يتمثل في النقاط التالية :

---

(١) الشيخ أبو العباس أحمد زروق قواعد التصوف ص ٤٦ قاعدة ٧٦ تحقيق الأستاذ محمد زهدي النجار مراجعة الدكتور على معبد فرغلي ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٦ م .

(٢) راجع دكتور محمد أحمد مصطفى علم التصوف ص٣٠٨ط الأولى ١٩٨٣ م .

(٣) دكتور عبد الحليم محمود التفكير الفلسفي في الإسلام ص ٢٩٧

أولا : الحس :

ينفرد أصحاب الاتجاه الخلقى الصوفى بجعل أداة الحس وسيلة للمعرفة وذلك بنظرة تجمع بين النقد والتقدير ، وذلك لأن أدواتها الحس الخمس المعروفة تطرأ عليها العلل والآفات التى تدعو إلى البعد عن الإدراك الصحيح أو الحجب كما يقول : بعض الباحثين وهو تعبير مقصود ، لأن الحس ما هو إلا مجرد ناقل إلى العقل ما انطبع فيه ، وكون الحس ليس كذلك حقيقة أيضاً ، لأنه قد يتدخل عامل من العوامل فيحجب الحس عن الإدراك الصحيح كزيادة إفراز المرارة ، مثلا فانها تحجب الذوق عن نقل الحس حلاوة السكر صافية كما هى ، الأمر الذى يدعونا إلى الحكم بأن الإحساس صحيح فى ذاته . ويرجع الحكم بأن السكر مر فى هذه الحالة إلى خطأ العقل ، لأنه حكم ، والحاكم هو العقل لا الحس ، إذ الحس مجرد موصل ، أما الذى يصدر الأحكام فهو العقل ، وهذه حقيقة تنطبق على كل وسائل المعرفة[1] .

وذلك لأن المعرفة التى بها الحواس هى نقطة البدء لدى أصحاب الإتجاه الخلقى الصوفى ، ولهذا قرروا أن النفس قرنت بالجسد من أجل أن تقف على حقائق المحسات وتدرك معانى المعقولات .

وتستطيع السير والسلوك فى طريق الفطرة وليست هذه دعوى بدون دليل ولكن مصداق هذا قول الله تبارك وتعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »[2] .

---

(١) دكتور محمد أحمد مصطفى المرجع السابق .
(٢) سورة النحل الآية ٧٨

فلولا الحواس لما كانت المعرفة ومايترتب عليها من أخلاق، وسلوك الأمر الذى يشير إلى ارتفاع أصحاب الاتجاه الخلقى الصوفى بالحس عن مستوى الجوارح الذى تنطلق منه الحواس عن قيودها المحدودة[1] .

ومصداق هذا ما جاء فى الحديث القدسى : أن الله تعالى قال : « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته : كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه[2] .

فالاتجاه الصـــوفى كما هو لدى أصحابه قائم فى الإدراك على ما قررته النصوص الإسلامية وكما بينه الحديث الشريف والمتمثل فى إشباع وسائل المعرفة ومطالب الروح واضعاً فى اعتباره أن هذا الإشباع لايمكن أن يتم بمعزول عن حاجات الجسد والعقل وذلك قائم على الشمول الذى هو الفطرة الإسلامية .

والمعرفة بهذا ما شهد به التاريخ ، وصدقه الواقع كما حدث حين سمع سارية قولة سيدنا عمر رضى الله عنه — التى لم يشعر بها ياسارية الجبل!! فعدل سارية . فى قطر أخر ، من وضع جيشه الأمر الذى ترتب عليه عدم الوقوع فى الهزيمة[3] .

---

(١) دكتور محمد أحمد مصطفى علم التصوف ص ٣٠٩

(٢) صحيح الإمام البخارى كتاب الدعوات جـ ٨ ص ١٣١ ومسند الإمام أحمد جـ ٦ ص ٣٥٦

(٣) ابن عربى الفتوحات المكية جـ٣ ص ٧٢ وراجع المرجع السابق الدكتور محمد مصطفى .

ويبلور ذلك قول القائل فى هذه القضية :

فلا تغرنك حال لست تعرفها .

ثم يقول :

فالحس أفضل ما تعطاه من منح
وصاحب الفكر منصور ومخذول[1]

وقال عمرو المكى : من قال إنى لم أجد حسا عند غلبات الوجد فقد غلط ، لأنه لم يدرك فقد الحس إلا بحس[2] .

ولكن عندما يستضيء بنور الإيمان ، لاعندما يتقيد الإنسان بأغلال الحس فينغمس فى شهواته ، أو يثق به ثقة عمياء بعيداً عن نور الإيمان فيقع فى الخطأ والضلال[3] .

وذلك لأن الإنسان لايصل بالحس إلى شيء أرفع من المحسات المادية، وقد يرتقى بعقله إلى شيء مما يدركه الحس ، ولكنه لايتجاوز نطاق المحسات[4] ، كما تبين فيما سبق .

---

(١) ابن عربى الفتوحات المكية جـ ٣ صـ ٧٢ . راجع المرجع السابق للدكتور محمد مصطفى .

(٢) دكتور عبد المنعم الحفنى معجم مصطلحات الصوفية ص ٧٧

(٣) دكتور محمد أحمد مصطفى — علم الصوفية صـ ٢١٠

(٤) الأستاذ حسن كامل الملطاوى الصوفية فى الهامهم صـ ١٤٢ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

ثانياً العقل :

يقصد بالعقل فى اللغة المنع والحجر والنهى ومن العقل قيل للحصن معقل ، كما قيل عن القوة فى الإنسان عقل[١] .

وقد ورد هذا الاستعمال فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « أفلا تعقلون »[٢] .

وما يعقلها إلا العالمون[٣] ، وقوله : « لقوم يعقلون »[٤] .

إذ من خطأ الحواس أن البصر يخطىء فيما يراه من قرب ومن بعد ، أما خطؤه فى البعد فإدراكه الشمس صغيرة ، ويشهد العقل بأنها كبيرة وخطؤه القريب يظهر فى حركة السفينة الغائصة فى الماء ، يرى البصر بعضها مكسوراً وهو صحيح ومعوجا وهو مستقيم .

فالحواس من وسائل المعرفة كما تقدم ولكن لو اعتمدنا على الحواس فى جميع الموارد كما قلنا لوجب أن نرفض كل فكرة لا يدرك واقعها بأحد الحواس ، والعقل أيضاً من وسائل المعرفة ولكن الاعتماد عليه وحده يضيق طريق الفطرة التى فطر الله البشر عليها وما كل هذه الوسائل إلا منبهات للفطرة التى فطر الحق تبارك وتعالى بنى البشر عليها كما وقفنا على ذلك فى أسس المعرفة التى يقدمها القرآن الكريم .

---

(١) راجع د. جميل صليبا — المعجم الفلسفى حـ ٢ ص ٨٤ ومختار الصحاح ص ٤٤٦

(٢) سورة البقرة الآية ٤٤

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٣

(٤) سورة البقرة الآية ١٦٤

وكما يقول الدكتور عبد الحليم محمود تحت موضوع قيمة العقل فى الوصول إلى الحكمة : إننا إذا ألقينا نظرة على التاريخ ، نجد الذين اتخذوا الطريق العقلى : يختلفون ، ويتعارضون ، ويتناقضون ، وليس فيهم من زعم أنه اتصل بالله[١] .

ويرى الإمام الغزالى أن العقل يشترك فى أكثر من معنى ، فهو من ناحية يراد به العلم بحقائق الأمور ، فالعقل عبارة عن العلم الذى محله القلب ، ومعنى ذلك أن القلب والروح والعقل لدى حجة الإسلام إنما هى جميعاً محلها القلب .

وأما المعنى الثانى للعقل فهو الجزء المدرك من الإنسان والذى يراد به أيضاً القلب لأنه هو الذى يدرك العلوم أى محل الإدراك[٢] .

وهنا نجد النظرة النقدية نفسها التى تجمع بين العيوب والمزايا . فالحس من العلم ، مثل علمت الشىء ، أى عرفت علامته وما يميزه ، وعلى هذا فمن الانتقادات التى توجه إلى العقل خضوعه للحس الذى يستمد منه مادته ، كى يصدر أحكامه بعد عملية التفكير فالمحسوسات الواصلة عن طريق أدوات الحس هى التى تكون المواد الأصلية لعملية التفكير ، ومن ثم يتعرض لأخطاء الحس السالفة الذكر والتى وقفنا عليها .

الأمر الذى من أجله أجمع أصحاب الإتجاه الصوفى على أن العقل يختص بالنظر والتمييز بين الخطأ والصواب والأمر والنهى ولكنه قد يصيب ويخطىء حسب كماله وصدقه[٣] .

---

(١) دكتور عبد الحليم محمود التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٢٣٩ وراجع معيار العلم للإمام الغزالى .

(٢) الإمام الغزالى إحياء علوم الدين .

(٣) دكتور حسن الشرقاوى ألفاظ الصوفية ومعانيها ص ٢٥٦

وهذا ما يتضح ويتبين من النظرة الشاملة إلى القوة المفكرة ، وذلك لأنها تعتمد على الخيال الذى يعتمد بدوره على الحس ، كأنه محكوم بالصورة الحسية أو أجزاء صورته المنتزعة من الحس .

ولذلك يقول صاحب الفتوحات المكية إن القوة المفكرة مالها تصرف إلا فى هذه الحضرة الخيالية إما بما فيها مما اكتسبته من القوى الحسية ، وإما مما تصوره القوة المصورة[١] .

ولذا يعتبر الوهم أكبر القوى المساعدة للعقل وتتحكم فيه تحكما قويا ، وخاصة عندما يريد أن يعقل الأمور المجردة التى لا تختلط بالمادة أو تصورها ، وهذا ما حدث للعقول عندما حاولت تخيل الحق على سبيل المثل .

ولذلك يقول أصحاب الإتجاه الصوفى : لا يسلم لعقل حكم أصلا ، بلا وهم فى هذه النشأة[٢] ، كذلك يخضع العقل للتفاوت بين بنى البشر أى للمزاج الخاص بكل مفكر وبهذا يفسر أصحاب الاتجاه الخلق الصوفى اختلاف مقالات بنى البشر وعقائدهم فى الحق تبارك وتعالى إذ العقل كما يتأثر بالوهم يعوقه العجز .

ولذلك يقول الصوفى السابق : واختلفت الأمزجة فلابد أن يختلف القبول .

الأمر الذى أدى إلى أن يعطى النظر فى كل عقل خلاف ما يعطى

---

(١) ابن عربى الفتوحات المكية حـ٤ ص١٨٦وراجع د. محمد مصطفى علم التصوف

(٢) المرجع السابق نقلا عن الدكتور محمد مصطفى

الآخر[١]، وفى هذا ما يبين لنا اختلاف بنى البشر واتجاهاتهم المتعددة الأمر الذى أدى إلى التأويل وهى عملية محفوفة بالمخاطر لأسباب متعددة منها تحكيم العقل فى النص مع أنه ينبغى العكس. وإلا لما كان لإرسال الرسل فائدة لو كفى العقل واستقل بتقرير القضايا، وفى ذلك من سوء الأدب مع الحق ما فيه.

ولذلك لم يكن فى استطاعة العقل سوى التنزيه، لا الإثبات وهذا هو وجه تسميته بالعقل أى أنه مقيد بوجه واحد من وجوه الحقيقة[٢] فهو جوهر مجرد يدرك الغائبات بالوسائط والمحسات بالمشاهدة[٣].

ولذلك يقول أصحاب الاتجاه الصوفى. ما سميت العقول عقولا إلا لقصورها على من عقلته[٤].

والواقع: أن العالم منذ نشأ، وهو يحاول أن يجد مقياساً عقلياً ليزن به الحق والباطل فى ميدان الأخلاق وما وراء الطبيعة ولكنه على مر الدهور، وعلى اختلاف البيئات ورغم الجهد المتواصل، لم يجد هذا المقياس العقلى[٥].

---

(١) ابن عربى — المرجع السابق ص ١٩٩ وراجع د. محمد مصطفى

(٢) دكتور محمد أحمد مصطفى علم التصوف ص ٢١٣

(٣) الشيخ الشريف على بن محمد الجرجانى — التعريفات ص ١٥٢

(٤) ابن عربى الفتوحات المكية ج٤ ص٤٠٦ نقلا عن د. محمد مصطفى المرجع السابق

(٥) دكتور عبد الحليم محمود — التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٢٤٠

كما أن كمال المعرفة العقلية محال بالنسبة للإنسان وتلك حقيقة لا يمارى فيها وما أصدق من قال : إن كمال الإدراك البشرى وتمام المعرفة الإنسانية لا يكونان إلا بإدراك أن هناك حقائق غير نهائية لا ينتهى إليها إدراك ولا يحيط بها بشر .

فالعقل الإنسانى عاجز بنفسه عن الوصول إلى كل مايقصده من العقائد الدينية .

ومن النظريات المتعلقة بما وراء الطبيعة من موجودات وإن كان قادراً على فهمها حين يوجهه إليها موجه ، ولهذا كان فى حاجة إلى من يظاهره حتى يبلغ غايته ، وهؤلاء الظهراء هم الرسل والأنبياء[1] . والصالحون من عباد الله الذين تحققوا بمقام العبودية .لا مايقوله — جون لوك — ويستدل به على دعواه .

فعلى الرغم من أن العقل لا يقدر على أن يستقل بإدراك كثير من التفاصيل فى العقائد الإلهية ، فإنه يقدر على التمييز وتبيين أيهما أجدر بجلال الحق الذى عرفه إجمالا وبكماله وعلى تعرف ما يليق به منها وما لا يليق حين تنسب إليه كما قلنا وذلك لأن النظرة التى عرفته الله عرفته أنه منزه عن شوائب النقص ومتصف بكل كمال[2] .

وعلى ذلك فإن كان العقل معتبراً قبل الإيمان فى الاستدلال على مجرد وجود الله وعلى رسالة الرسول فإنه يخلق به بعد ذلك أن يتخذ النص هادياً وأن يعرف أن الإيمان نور يقذفه الله فى القلب وذلك النور هو

---

(١) دكتور محمود حب الله : الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص ٢٦٠ ط الأولى دار الكتب المصرية .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٢ .

مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف : موقوف على الأدلة الموجودة فقد ضيق رحمة الله الواسعة .

فالاكتفاء بالمعرفة عن طريق العقل تضييق لدائرة معرفة الإنسان فضلا عن أنه قد يتردى فى الخطأ كما تبين فيما سبق [1] .

ولذلك أيضاً يقول أصحاب الإتجاه الخلق الصوفى فى هذا المقام المتفكر ناظر إلى قوة مخلوقة يعنى العقل فيصيب ويخطىء وإذا أصاب يقبل دخول الشبه عليه بالقوة التى أفادته بالإصابة [2] ويقولون : إن العقلاء من أهل النظر يتخيلون أنهم علماء بما أعطاهم النظر والحس والعقل وهم فى مقام التقليد وما من قوة إلا ولها غلط قد علمـوه ومع هذا غالطوا أنفسهم وفرقوا بين مايغلط فيه الحس والعقل والفكر ومالا يغلط فيه ومايدريهم لعل الذى جعلوه غلطاً يكون صحيحاً [3] . كما تبين فيما سبق أن العقل قد يصيب ويخطىء حسب كماله وصدقه أما إذا اتفق مع القلب وهو الباطن فى رأيهم كان الشخص ظاهره كباطنه عقله كقلبه ، شريعته كحقيقته فلا تميز بينهما ولا فرق بين العقل والقلب .

وهنا يكون الإنسان مسترسلا مع الله ، ولايبقى له إلا التسليم ، وهذا عن طريق القلب لا العقل [4] .

---

(١) راجع الإمام الغزالى المنقذ من الضلال صـ ٧٩ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ط السادسة ١٩٦٨ .

(٢) دكتور محمد أحمد مصطفى علم التصوف صـ٢١٣ .

(٣) ابن عربى الفتوحات المكية جـ٢ صـ ٢٩٨ وراجع د/ محمد مصطفى المرجع السابق .

(٤) دكتور حسن الشرقاوى ألفاظ الصوفية صـ ٢٢٩ .

وذلك لأن المعرفة الآتية عن طريق الحواس ليست يقينية ، ولكنها تتعرض للصواب والخطأ كما قلنا فمن خطأ الحواس أن البصر يخطيء فيما يراه من قرب ومن بعد أما خطؤه فى البعد فإدراك الشمس صغيرة .

ويشهد البرهان العقلى أنها كبيرة وخطؤه القريب يظهر ويتضح فى حركة السفينة الغائصة فى الماء يرى البصر بعضها مكسوراً وهو صحيح ، ومعوجا وهو مستقيم كما تبين ذلك فيما مضى ، وكذلك العقل عاجز عن معرفة حقيقة بعض المشاهدات التى تحقق بها أصحاب الإتجاه الصوفى فى تجاربهم الخلقية وهذا قد ينكره العقل مع أن هذه المشاهدات إنما تحس ذوقا وكشفاً لأنها ليست من شئون العقل ، بل هى من شئون الوجدان[1] .

ولذا يرى الإمام الغزالى : أنه لايجوز للعقل أن ينكر وجود المعرفة القلبية فيقول : ولا يبعد أيها المعتكف فى عالم العقل أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر فى العقل ، كما لا يبعد كون العقل طوراً وراء التمييز والإحساس ينكشف فيه عجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز [2] .

الأمر الذى ترتب عليه عدم اعتماد أصحاب الاتجاه الخلق الصوفى فى المعرفة على العقل وحده لأن المعرفة العقلية علاوة على ما تقدم تقوم على أمور افتراضية تقديرية فلا تعطى حكما قاطعاً ، ولذا كان العقل عاجزاً عن إدراك حقائق الأمور .

---

(١) أبو طالب المكى قوت القلوب جـ٢ صـ ١١٤ .

(٢) دكتور محمود قاسم دراسات فى الفلسفة الإسلامية صـ ١٦٢ ط دار المعارف ١٩٦٧ م .

ومن هنا فلا يمكن الحصول على المعرفة الصحيحة عن طريق الحواس . وهذا القول يسلمنا إلى الوسيلة الثالثة التى تقوم على الشمول بينها وبين الحواس كما هى لدى أصحاب الإتجاه الخلقى الصوفى .

ثالثاً : القلب أو البصيرة :

يرى أصحاب الإتجاه الصوفى أن الطريق لإدراك المعرفة هو القلب — أو البصيرة — إذ العبد المشغول بالله يقربه الحق تبارك وتعالى إليه ، ويفيض عليه من نعمه ويفتح عليه من أسراره ويكشف له ما غمض من أمره ، ويمن عليه من رحمته ويجعله على بصيرة من أمره ، وذلك وارد فى قول الله تعالى : « قل هذا سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة [1] .

والبصيرة هنا هى نور فى القلب وهى علم إلهامى مقابل العلم الكسبى كما تبين فيما سبق ويستبصر المؤمن بقلبه كما يبصر الإنسان بنور عينه ، ويقال للصوفى صاحب بصيرة لأنه صاحب فراسة وتوسم .فيرى الأمور من بعد ، وهى نعمة من الله تعالى استرشاداً بقوله تبارك وتعالى : « قد جاءكم بصائر من ربكم »[2].

ولذا يقول شهاب الدين السهروردى « والحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب فقال : لهم قلوب لا يفقهون بها »[3] .

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٨ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠٣ وراجع د/حسن الشرقاوى ألفاظ الصوفية ص ٣٢٢

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٩

وقال تعالى : « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان » .

فالعقل مجاله الحس بخلاف القلب الذى هو وعاء العلم والمعرفة قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم » .

أما أصحاب الاتجاه الصوفى فالدنيا بما فيها لا تستعبدهم لأنهم يلقون بقيادهم إلى الله[١] .

إذ للقلب الذى هو زمام أمرهم أهميته بالمقارنة إلى وسائل المعرفة الأخرى ، ويتضح ذلك من مميزات المعرفة القلبية وهى تتمثل فى أنها معرفة يقينية ووهبية وذوقية ، نابعة من التجلى التذكرى ولذا لا ترد عليها الانتقادات التى وجهت إلى ما ينتج عن الحس والعقل من تعرض للأخطاء والشبه[٢] .

ولذا يعقد الإمام الغزالى موازنة بين كيفية حصول العلم الحسى فى القلب وحصول الإدراك الخارج عن مدركات الحس كما تبين فيما سبق .

ومن هنا كان طلب العلم لنقل العالم الخارجى ذوات ومعان من واقعها المفارق للكينونة الإنسانية إلى داخل الإنسان ، وذلك بحصول صورته فى ذهنه ، وحينئذ تحصل درجة من القربى بين الإنسان وبين ما سواه ، بل بينه وبين نفسه ، تزول معها كل غربة ، وكل توتر وتناقض[٣] ،

---

(١) السهروردى عوارف المعارف صـ ١٧ تحقيق د/عبد الحليم محمود والدكتور ابن الشريف .

(٢) دكتور محمد مصطفى علم التصوف صـ٢١٦

(٣) الأستاذ عبد المجيد النجار العقل والسلوك فى البنية الإسلامية ص ١٢٣ .

ومصداق هذا قول الرسول ﷺ: هو الأنيس فى الوحشة . والصاحب فى الغربة والمحدث فى الخلوة والدليل فى السراء والضراء[١] .

ومن هنا أيضاً كان العلم الذى دعا إليه الصوفية هو العلم العملى الذى يكون عملياً من حيث ذاته أولا ، ومن حيث صيرورته عملا ثانياً .

أما أن يكون عملياً من حيث ذاته ، فمعناه أن يحمل فى نفسه قابلية التطبيق العملى ، وأما ما لا يحمل هذه القابلية فهو من باب الترف الذهنى وليست هذه دعوى بدون دليل . فكل مسألة لاينبنى عليها عمل فالخوض فيها لم يدل على استحسانه دليل شرعى[٢].

وهذا الفرق هو فى الحقيقة فرق بين المعرفة وبين الإيمان .

فالمعرفة هى مجرد التصور الذهنى ، وهى المرحلة الأولى من العلم فى المفهوم الاسلامى، والايمان هو التصديق بذلك التصور تصديقاً يأخذ بمجامع النفس بحيث تندفع اندفاعاً إلى الاتصاف به وتطبيقه فى الواقع[٣] وهذا العلم الذى يحرص الصوفية عليه ، وقد قال ابن خلدون فى هذا المعنى :

«العلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة هو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف ، وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل

---

(١) رواه ابن عبد البر فى كتاب جامع بيان العلم وقال حديث حسن.
(٢) العلامة ابراهيم بن موسى أبو إسحاق الشاطبى الموافقات فى أصول الأحكام تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ص١٨ ط صبيح ١٩٦٩م
(٣) راجع الأستاذ عبد الحميد النجار — المرجع السابق .

ويتكرر مراراً غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق، ويجيء العلم الثانى النافع فى الآخرة فإن العلم الأول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع، وهذا علم أكثر النظار، والمطلوب إنما هو العلم الحالى — أى الذى تصحبه حالة من التطبيق الناشىء عن الخلق والسلوك »[١] .

أما فى مجال التفرقة بين هذين النوعين من التصور ، وبيان أن الثانى منهما هو العلم الحق والذى تمسك به الصوفية امتثالا لقول الرسول ﷺ العلم علمان : علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه، وعلم فى القلب فذلك العلم النافع[٢] .

والمقصود بالعلم الذى فى القلب العلم الذى يصاحبه عمل ونستطيع أن ندلل على هذا المعنى من قول الله تعالى : ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا[٣] .

فإن العلم بماهيته الروح علم لا يترتب عليه عمل فهو لا يحمل فى ذاته الصفة العملية، ولذلك لم يعلم به الله تعالى السائل، وفى ذلك صرف للناس عن أمثاله، وقد سئل الرسول ﷺ عن موعد قيام الساعة، فأجاب سائله بقوله ما أعددت لها ؟ وفى هذا الجواب إشارة إلى أن العلم بموعد الساعة لا يترتب عليه فى ذاته فائدة عملية، وإنما الفائدة تترتب على العلم بحقيقة قيام الساعة، وهى إعداد العدة لهذا القيام، فقد وقع صرف الذهن عن تصور لا ينبنى عليه عمل إلى تصور ينبنى عليه عمل وسلوك .

---

(١) العلامة ابن خلدون المقدمة ص ١٢٥

(٢) أخرجه الإمام الترمذى .

(٣) سورة الإسراء الآية ٨٥

وأما أن يكون عملياً من حيث ضرورته ، فمعناه أن يكون زيادة على أنه يحمل قابلية التطبيق ، صالحاً للتطبيق فعلا وذلك لأن هناك فرقاً بين علم هو مجرد استحضار الذهن للمعلومات واستعراضها عند الحاجة وبين علم ترسخ صورته فى النفس وتمتزج بها حتى تصير صفة من صفاتها الراسخة وملكة دافعة للإرادة باعثة لها على العمل[1] .

فالعلم يشمل العلوم المكتسبة والعلوم الفطرية التى يتوصل إليها السالك بلا جهد ولا نظر ومصداق ذلك أن دعوة القرآن الكريم إلى العلم وحثه على طلبه تعتبر تأكيداً لعامل الكسب فى تحصيله كما تبين فيما سبق وكما فى قول الله تعالى: «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط»[2] .

حيث بدأ بنفسه وثنى بملائكته وختم بأهل العلم ومن هنا فأساس العلم تقوى الله وكلما ازداد الإنسان فى حبه وتقواه تيسرت له بواعث العلم والمعرفة لقول الحق تبارك وتعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله »[3] .

وهذا القول الجامع يوقفنا على باعث اهتمام الصوفية بالعلم . إذ هو كالمقاصد بالنسبة للمبادئ والغايات بالنسبة للوسائل والغاية أن نهتدى إلى قاعدة عامة لنرجع إليها ونعرف الخير من الشر[4] .

---

(١) الأستاذ محمد عبده تفسير المنار جـ ١ ص ١٢٨ ط الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٢ م

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٢

(٤) راجع د/أبو بكر ذكرى — الأخلاق النظرية صـ ١٦ ط مطبعة شبرا ومكتبتها ١٩٤٢ م

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية[١] .

فالعلم هو سبب لقبول العمل وذلك لأن الله تعالى لا يقبل عملا إلا على طريقه ، وطريقه العلم[٢] .

ولذا يقول الرسول — ﷺ : إنما العلم بالتعلم[٣] ويقول : ولتفشوا العلوم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا[٤] .

كما أنه لقيمته قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة[٥] .

وعن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت من السماء فى جذر قلوب الرجال ونزل القرآن فقرءوا القرآن وعلموا من السنة[٦]

وذلك لأنه الوسيلة لأداء الفرائض ، والفرائض لها علوم وأحكام فمن لم يعرف علومها ولم يقم بأحكامها فكأنه لم يعلمها[٧] . ليس هذا فحسب بل به ترجح الأعمال وتتضاعف الحسنات ويتمكن الإيمان ويزداد فى القلب[٨] . وما ذلك إلا لأنه غذاء العقل ، وهو ليس علم الدين وحده ، وإنما علم الدين والدنيا على السواء .

---

(١) سورة البينة الآية ٧

(٢) أبو طالب المكى قوت القلوب فى معاملة المحبوب .

(٣) صحيح البخارى كتاب العلم حـ ١ صـ ١٧٠

(٤) صحيح البخارى كتاب العلم حـ ١ صـ ٣٦

(٥) المرجع السابق جـ ١ صـ ١٧٠ والجامع الكبير للعلامة السيوطى جـ ١ صـ ٥٦٧ ط دار الكتب بالقاهرة .

(٦) صحيح البخارى كتاب الاعتصام والسنة حـ ٩ صـ ١١٤

(٧) قوت القلوب لأبو طالب المكى حـ ٢ صـ ٥٨٣

(٨) المرجع السابق حـ ١ صـ ٢٣٧

وهو واسطة لمعرفة الخالق كما أنه واسطة لمعرفة كل مايهم الإنسان من الأشياء والقوى الطبيعية واستخدامها فى مصلحة الإنسان[١].

ومن هنا كان هو الطريق للخروج من الشبهة والمزالق التى يتردى فيها الإنسان[٢].

ولذا كان الاعتصام به يؤدى إلى النجاة من كل مايبعد الإنسان عن الخطأ . ومن ثم كان طلبه طاعة والسكوت على الجهـــل معصية يأثم صاحبها[٣].

يقول ﷺ — من أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه ، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه[٤].

ويقول أيضاً : العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهـو فضل : آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة[٥].

ولذا كان طلب العلم أفضل من جلوس العابد للعبادة وذلك لأنه ذكر لله وعمل له وطريقه إليه بالمجاهدة التى جعلها الله سبحانه وتعالى مقدمة

---

(١) دكتور محمد فاضل الجمالى نحو توحيد الفكر التربوى فى العالم الإسلامى ص ٨٩ ط ١٩٧٧ م.

(٢) القوت جـ ١ ص ١٦٣

(٣) الإمام الغزالى إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٤٥٩

(٤) رواه أبو داود وابن ماجه : الشيخ منصور على ناصف التاج كتاب العلم ص ٧٣

(٥) المرجع السابق ص ٦٤

للهداية حيث قال : والذين جاهدوا فينـــا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين[١].

فأصل كل أصل من علوم الدنيا والآخرة مأخوذ من الكتاب والسنة مدحاً للمدوح . وذماً للمذموم ووصفاً للمأمور به ، ثم للناس فى أخذها ثلاثه مسالك :

أولها : قوم تعلقوا بالظاهر ، مع قطع النظر عن المعنى جملة وهؤلاء أهل الجحود من الظاهرية لاعبرة بهم .

والثانى : قوم نظروا للمعنى نفسه جمعاً بين الحقائق فتأولوا مايؤول وعدلوا مايعدل ، وهؤلاء أهل التحقيق من أصحاب المعانى والفقهاء .

والثالث : قوم اثبتوا المعانى ، وحققوا المبانى ، وأخذوا الإشارة من ظاهر اللفظ وباطن المعنى ، وهم الصوفية المحققون والأئمة المدققون[٢] الذين جمعوا بين علم الظاهر والباطن وقام علمهم على التكامل بينهما امتثالا لحديث الرسول ﷺ « تفكروا فى مخلوقات الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » .

ومن هذا القول الشامل كان الباعث للعلم لدى الصوفية يتوسط بين الظاهر والباطن، فإذا مال إلى الظاهر طغت عليه العوامل المادية وأصبحت نظريات تعتمد على الظاهر ، وإذا مال إلى الباطن اعتمدت نظرياته على الناحية الباطنية إلا أن كل واحدة من الناحيتين ترتبط بالمنبع الأصلى وهو الشرع الجامع للشريعة والحقيقة .

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى جـ ١ ص ٢٩ والآية من سورة العنكبوت ٦٩

(٢) الشيخ أحمد زروق قواعد التصوف ص ٤٧ قاعدة ٧

فالعلاقة بين علوم الظاهر والباطن هى التكامل لا التعارض ومن هنا فلا يستغنى بأحدهما عن الآخر فهما بمنزلة الإسلام والايمان مرتبط كل منهما بالآخر وكالجسم والقلب لاينفك أحدهما عن صاحبه[1].

وهكذا تتكامل الشريعة والحقيقة ويتألف الظاهر والباطن فى توحيد السلوك والباعث إليه .

وبعد هذه الالمامة السريعة فى الأساس المعرفى لدى الصوفية تعود إلى ماكنا بصدده مع —جون لوك— فى حجته الثانية :

حيث يعرض لها ويقول : هى مايذكرها دعاة المعرفة الفطرية ، ويزعمون أن جميع بنى البشر يعرفون هذه المبادىء ويوافقون عليها حين يبدءون فى استخدام العقل .وهنا يقول— جون لوك— إذا كان الأمر كذلك فهناك أحد أمرين أى احتمالين :

الاحتمال الأول : أن الأفكار الغريزية مفطورة فى الإنسان وعند استخدامها عرفها .

الاحتمال الثانى: أنه عند ما استخدم العقل اكتشف هذا المبدأ وبرهن —جون لوك —على وجهة نظره فيقول :

أما الأمر الثانى فرفوض بحجة أن العقل وظيفته الاستنتاج وليس الاكتشاف .

وأما الأمر الأول : أى إذا كانت هذه الأفكار مفطورة فى الإنسان قبل أن يستخدم عقله فأحد أمرين .

---

(١) السراج الطوسى كتاب اللمع ص ٤٤

كون الشيء مفطوراً والعقل به عالم أو جاهل .

وإن كان عالما به فتحصيل حاصل .

وإذا كان جاهلا فهو متناقض يعرفها ولايعرفها ونحن هنا نرى أيضاً أن — جون لوك — قد تناقض مع نفسه ، لأنه من المستحيل أن يكون فى أفكار مفطورة وأنا لا أعرفها كما أنه يقول إن عمليات الإدراك العقلى لاترجع إلى وجود انطباعات فطرية ولا إلى اكتشاف العقل لها إنما ترجع إلى وظيفة العقل نفسه وهى مستقلة عن الغرضين السابقين .

وكما رفض الجانب النظرى فى نظرية المعرفة كذلك رفض الجانب العملى .

أما فيما يتعلق بفكرة الألوهية فيقول . — جون لوك — إن الله موجود وتجب عبادته ، وأن فكرة العبادة ليست فكرة مفطورة بدليل أن هناك شعوبا لاتعرف الله .

وإذا لم تكن فكرتنا عن الله مفطورة فمن غير المعقول أن تكون هناك أى أفكار أخرى فطرية . فهى سواء كانت نظرية أو عملية ليست مفطورة فى الانسان ، وعمل العقل هو الاستنتاج وهذا الاستنتاج يتطلب العلم بالأوليات والبديهيات فما هى الأوليات التى يطلبها قضايا واضحة بذاتها وضوحا تاماً بحيث لا يحتاج إلى دليل على وجودها ، هذا مفهوم ما قاله جون لوك .

ونحن نقول له إن هذه البديهيات كما تقول دليل وجودها وضوحها لكن هذا يناقض ما ذهبت إليه من أن المعرفة حسية وتجريبية . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أنك عندما أردت أن تثبت حسية المعرفة

وتجربتها قلت بغير قصد إن هناك جانبا من المعرفة يمكن أن ندركه من غير حس ولا تجربة .

وعلى هذا فأساس فلسفة جون لوك — هو هدم الأفكار الفطرية وأن العقل صحيفة بيضاء أى أن عقلنا ساعة أن نولد أشبه بصحيفة بيضاء ومعارفنا مكتسبة من التجربة وهناك نوعان من التجربة[1] .

الأولى : خارجية وهى التجربة الحسية :

والثانية : تجربة داخلية أو باطنية وهى تأمل العقل والأفكار التى ترد إليه عن طريق الحواس .

والأفكار التى تأتى إلى العقل عن طريق الحواس هى الأفكار البسيطة والتى هى من قبيل اللون والشكل والصلابة والامتداد والحجم والحركة والعدد وما إلى ذلك .

ويتناول العقل هذه الأفكار البسيطة ويقيم عليها نشاطه فيربط بينها ويؤلف منها أفكاراً مركبة وهذه لا يقابلها محسوس خارجى كما هو الشأن فى الأفكار البسيطة . بخلاف الأمر فى الأفكار المركبة والتى تتمثل فى : الأعراض ، والجواهر ، والعلاقات .

أما الأولى : فهى الأمور أو الصفات التى لا تقوم بنفسها بل توجد فى غيرها كالسواد والبياض الذى تصف به الإنسان أو الجمال الذى نصف به الوردة أو الحديقة .

---

(١) راجع دكتور محمد غلاب المعرفة عند مفكرى المسلمين ص ٧٤ مراجعة الأستاذ عباس محمود العقاد والدكتور زكى نجيب محمود ط الدار المصرية .

والثانية : هي الأمور القائمة بنفسها أي الأفكار التي تدل على أشياء توجد بذاتها وتوصف بالأعراض كالزهرة والحديقة والإنسان .

والثالثة : أي العلاقات وهي الأفكار التي تعبر عن الارتباط بين طرفين كمفهوم العلية = علة ومعلول ، ومفهوم النبوة = أب وابن وهكذا .

ومن هنا يقول جون لوك — إن العقل لا يبدى نشاطاً في اكتساب الأفكار البسيطة التي تأتي من الاحساس بل لا يعدو دوره استقبالها فحسب وعلى هذا فموقف العقل من هذه الأفكار موقف سلبي بينما يتبدى نشاطه واضحاً في التأليف بين هذه الأفكار في أفكار مركبة فيكون موقفه حينئذ موقفاً إيجابياً .

وعلى هذا فالأفكار المركبة لا يطابقها أي شيء واقعي في الخارج نظراً لأنها تنشأ فقط عن طريق التكوين داخل العقل[1] .

وبذا يتضح ويتأكد أن أسباب فلسفة جون لوك هدم الأفكار الفطرية وأن العقل صحيفة بيضاء فعلى أنقاض هدمه يبنى أساس فلسفته الحسية والتجريبية فقد هدم فطرية المعرفة وقدم لها بديلا هو التجربة .

فما هي حقيقة التجربة عنده :

هي أن تكون المعرفة بعد التجربة وهذا أمر ظاهر والواقع أن أي خبرة عنده لابد أن ترد في أساسها الأول إلى الإحساس وتعتمد اعتماداً مباشراً على التجربة الحسية . وهي ليست أكثر من تلقى الإنطباعات الحسية ونقلها إلى الصفحة البيضاء أي العقل .

---

(١) دكتور محمود حمدي زقزوق دراسات في الفلسفة الحديثة ص٢٠٧ ط الأولى ١٩٨٥

والعقل عنده له طبقتان كما تبين فيما سبق .

١ — طبقة سلبية .

٢ — طبقة إيجابية .

الأولى : ويقصد بها الاستعداد لتلقى الأفكار .

والثانية : وهى ما تقوم بالربط بين هذه الأفكار واستخلاص الحكم منها وعلى هذا تنقسم التجربة عند چون لوك إلى قسمين :

١ — حسية ظاهرة وتعتمد على الإحساس .

٢ — عقلية : وهى عملية الربط بين الأفكار .

فيلاحظ أنه قد توسع فى معنى التجربة بخلاف سابقيه حيث إن التجربة عنده شملت الجانب الحسى والجانب الفكرى فى الوقت الذى كانت التجربة عند الآخرين تنحصر فى الحواس فقط مثل المفكر الإنجليزى توماس هوبز . وآخرين .

كما أن توسع چون لوك فى معنى التجربة اضطره إلى الإعتراف ببعض المفهومات الميتافيزيقية بالرغم من إنكاره لأغلب مفهومات الجانب العقلى لكن إعترافه كان بسبب محاولته إثبات وجود الله ولكن هى محاولة ضعيفة لأن أغلب مذهبه يقوم على الحس والتجربة فالمفهومات العقلية ليس لها فى فلسفته نصيب .

ويرى چون لوك — أن الأفكار المركبة التى هى ثمرة نشاط العقل جعلت الفلاسفة العقليين يتوهمون أنها فطرية نابعة من العقل ولا دخل للتجربة فيها .

ويحلل — لوك — بعض هذه الأفكار المركبة كما تبين فيما سبق ليثبت أنها فى نهاية الأمر مستمدة من الأفكار البسيطة الآتية بدورها من التجربة الحسية .

— ففكرة اللا نهائى : كان ديكارت يعدها فكرة فطرية واستنتج عن طريقها وجود الله تعالى . حيث يقول: لما كنت أشك فمعنىهذا أنى ناقص وليس من سبيل إلى إدراك نقصى إلا إذا كانت فى ذهنى فكرة الكمال اللا متناهى . فمن الذى وضع هذه الفكرة فى ذهنى ؟

لابد وأن يكون موجوداً كاملا لا متناهياً أعنى الله تعالى . ولكن لوك — يرى أن هذه الفكرة وليدة نشاط العقل بتأليفه بين الأفكار البسيطة المستمدة من التجربة الحسية .

وذلك لأنه لما كان وجودنا محدوداً بالزمان والمكان فإننا نتصور مكاناً لاحدله . وزمانا لاحدله عن طريق المقارنة والتخيل . ومن هنا تأتى فكرة اللا متناهى فهى إذن من تأليف العقل وهى بذلك تاليه لفكرة المتناهى الآتية من التجربة والتى لولاها لما وصلنا إليها .

فالتجربة إذن هى معين المعرفة .

— أما فكرة الجوهر : فهى من ابتكار العقل وليس هنالك وجود حقيقى لجوهر ما ، وإنما يبتكر العقل هذا الوجود حتى يحل فيه الصفات المختلفة .

— وفكرة العلية : أيضاً وليدة التجربة ، تنشأ عن إدراكنا للتغير فى الظواهر والأشياء التى تقع تحت حواسنا ، ومن هنا يرى العقل أنه لابد أن يكون هذا التغير نتيجة سبب هو علته . ففكرة العلية إذن فكرة مركبة ألفها العقل من أفكار بسيطة ولا وجود لها فى خارج الذهن .

حيث يقول — جون لوك — ليس للكل وجود آخر غير هـــذا الوجود التجريدى . أى ليس له وجود خارجى كما يقول المدرسيون ، أما المادة فإن الوجود الخارجى ثابت لها بالضرورة ونحن نعرف هذا

بالحواس الخمس الظاهرة وهى معرفة لا تقبل الشك يدل على ذلك أن الذى يولد فاقداً لإحدى حواسه لا يستطيع أن يدرك المعارف المتعلقة بهذه الحاسة.

فمن ولد أعمى مثلا لا يمكنه أن يعرف طبيعة الألوان مهما وصفت له ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الحواس يؤكد بعضها بعضاً فمن رأى النار بعينه وشك فى وجودها مع ذلك يزول شكه إذا لمسها بيده.

وكل هذا يؤكد وجود المادة أو العالم الخارجى على نحو ما تنقله إلينا الحواس ، والنفس موجودة أيضاً بدليل ما تمارسه من عمليات التفكير.

— أما الله سبحانه وتعالى فلابد من القطع بوجوده ، إذ لا يمكن أن يكون هذا العالم صادراً عن لا شىء فهو مرتبط بشىء إرتباط المعلول بالعلة ، وهذا الشىء أو هذه العلة هى الله تعالى الذى أوجد العالم على ما هو عليه[1].

وليس معنى هذا أن قضية الألوهية قضية فطرية بل هى قضية نظرية تفتقر وتحتاج إلى البرهان.

وإلا كانت فكرة الألوهية موضع اتفاق الناس جميعاً.

والواقع ينفى بشدة القول بهـــذا الاتفاق فهناك الملحدون الذين يرفضون الألوهية رفضاً باتاً.

---

(١) جون لوك للدكتور عزمى إسلام ص ٦٧ ، ١٧٢ ط دار المعارف بمصر وراجع د. رفقى زاهر أعلام الفلسفة الحديثة ص ٨٤ ط الأولى مكتبة النهضة المصرية.

وهناك البدائيون الذين يتصورون الألوهية تصوراً ساذجاً ينأى بها عن منطق العقل ونصوص الديانات[1] .

ومن هذا المنطلق يرى جون لوك أن معرفة الإنسان بالوجود تنقسم إلى الأقسام التالية :

١ — المعرفة بالوجود الذاتى — وتكون بالحدس .

٢ — المعرفة بوجود الله تعالى — بالبرهان .

٣ — المعرفة ببقية الأشياء الحسية الأخرى وتكون بالحس ومن خلال هذا العرض يتضح أن أفكار جون لوك المعرفية قد أثارت إهتمام الفلاسفة والمفكرين لا لأنه يعتبر أول من درس نظرية المعرفة دراسة منفصلة وأفرد لها بحثا خاصاً .. محاولة فى العقل البشرى ، بل لتطبيقه المنهج التجريبى على بحثه فى نظرية المعرفة .

ومن هنا فهو نقطة تحول فى تاريخ الفلسفة الحديثة فى أوربا وإن كان قد اختلف البعض معه وعارضه بشدة وسانده البعض الآخر وتحمس له ، وهذه المعارضة من جانب والحماس والتأييد من جانب آخر كما يقول أستاذى الدكتور محمود حمدى زقزوق: إن دل على شىء فإنما يدل على مدى الاهتمام الكبير بهذه الأفكار التى أعقبها عدة إتجاهات أهمها ثلاثة :

١ — إتجاه إيجابى تناول تجربته وطورها حتى وصل بها إلى نتائج تختلف عما وصل إليه جون لوك مثل الفلسفة الحسية عند هيوم .

٢ — تأثير عكسى معارض تناولها بالنقد مُنتهياً إلى عقلية متطرفة كفلسفة ليبنتز .

---

(١) د . محمد عبد الرحمن بيصار تأملات فى الفلسفة الحديثة المعاصرة صـ ١٢١ ط الثالثة الأنجلو

٣ — اتجاه نقدى حاول التوفيق بين الاتجاه الحسى من ناحية والعقلى من ناحية أخرى وذلك فى فلسفة كانت[1] .

تعقيب :

يتضح لنا مما سبق أن نظرية لوك فى المعرفة ووزنها الفلسفى لا يتفق مع رأيه الخاص فى تحليل المعرفة ، وذلك لأن الإدراك عنده يرجع إلى الحس والتجربة . وحتى المعارف البديهية كمبدأ عدم التناقض والمبادىء الأساسية فى الفكر البشرى . والنتيجة لذلك : هى الشك المطلق فى كل شىء ويكون مصدره المعرفة لأنها ليست فى حقيقتها إلا إدراكاً حسياً اكتسب بالتجربة الظاهرة أو الباطنة .

وهكذا يبدو أن تنويعه للمعرفة إلى أقسام ثلاثة والتفريق بينها من ناحية الاعتبار الفلسفى يتناقض مع الأسس التى أقامها .

كما أن تقسيم — لوك — لخواص الأجسام المحسوسة الى طائفتين كما فعل ديكارت ليس منطقياً على أسسه وان كان منطقياً إلى أحدما على أساس ديكارت ، ذلك لأن ديكارت كان يقسم المعرفة إلى عقلية وحسية كما تبين فيما سبق ، ويؤمن باعتبار الأولى دون الثانية .

ومن هنا فقد نوع تلك الخواص إلى أولية وثانوية ويؤمن بأن الخواص الأولية حقيقية وموضوعية دون الخواص الثانوية .

أما — جون لوك — فقد بدأ بناءه الفلسفى بأبعاد الأفكار النظرية

---

(١) دكتور محمود زقزوق تمهيد للفلسفة وراجع له دراسات فى الفلسفة الحديثة ص ٢١٤ ط ١٩٨٥ م

والإيمان بسيادة الحس على الإدراك كله، فخواص الأجسام لا سبيل إلى إدراكها إلا الحس. !!

وهنا نلمح مما سبق قيمة الأسس التي يقدمها القرآن الكريم لنظرية المعرفة وشمولها في مواجهة نظريات المعرفة لدى البشر. وأن الإنسان لم يعثر على المعرفة ولكن الله هو الذي أعطاه إياها ممثلة في المجموع الذي هو الإنسان ككل أي كعقل وإرادة ووجدان.

وعلى هذا تتقرر حقيقة هامة وهي:

أن العقل يحتاج إلى الإيمان بالله، وأما العقل المستقل فطغيان وانحراف.

وهنا نقول لجون لوك — إن أدق ما توصف به المعرفة الصوفية أنها معرفة إنسانية شاملة لأنها نظرت إلى الإنسان نظرة شاملة لكل جوانبه ولم تقتصر على قوة إدراك واحدة، بل نهلت من موارد الحس، وروافد العقل، وبوارق القلب كما بين ذلك أئمة هذا الاتجاه امتثالا لقوله تعالى «إن إلى ربك الرجعى»[1].

وهذه الآية كما تتحدث عن الله باعتباره خالقاً وأصلا للوجود تتحدث عنه كأصل للمعرفة الإنسانية.

ولولا ذلك لأصبح العلم للجاهلين، وحاشا لله أن يكون فعل المجانين كفعل العارفين كما يقول جون لوك في دعواه القائمة على غير أساس.

---

(١) سورة العلق الآية ٨

نتائج البحث

يتضح لنا مما تقدم أن فلسفة — چون لوك — فى نظرية المعرفة على كثرة ما فيها من أشواك ففيها أيضاً بعض الورود ويتبين ذلك فى النقاط التالية :

١ — إن أبرز ما أثار الانتباه فى فلسفة چون لوك بالنسبة لقضية المعرفة إنكاره للمعانى الغريزية « المعارف الفطرية » وكون الذهن أشبه بصحيفة بيضاء ثم تعود إليه صور الأشياء لتكون معارفه ممتدة من العالم الخارجى .

٢ — تناقضه مع نفسه فى الخلط بين المعرفة الفطرية والإدراك وذلك فى حجة الإجماع واستشهاده بالأطفال والمجانين .

٣ — قوله بأن الموضوعات الخارجية موجودة وجوداً مستقلا عن معرفتنا بها . ليس هذا فحسب . بل ويمكن أن تستمر فى الوجود حتى ولو لم يكن هناك أفراد يدركونها هــذا من ناحية ومن ناحية أخرى فالأفكار تعتمد فى وجودها على العقل بالرغم من أن قيامها فى العقل مستمد أصلا من الأشياء الخارجية .

ويلاحظ هنا التناقض وعدم الإنسجام فى سبيل نقض الأفكار الفطرية ثم يعود إلى التسليم بأن للعقل نماذج وأفكاراً نظرية أو صوراً لحقائق الله والنفس والعالم الخارجى ويتلخص هذا القول بالمعرفة الحسية والهدم للأفكار الفطرية .

ثم يقدم لها بديلا هو التجربة فعلى أساس هدمه يبنى فلسفته . ومن هنا فنظريته فى المعرفة ووزنها الفلسفى لا يتفق مع رأيه .

٤ — وأيضاً فإن الكثير من آرائه لم يأخذ حقه من التأمل والإدراك ويتضح ذلك فى اعتقاده بأن المعرفة الوجدانية حقيقية وذادت قيمة من الناحية الفلسفية ، وكذلك المعرفة التأملية التى يمكن توضيحها باستدلال صحيح .

أما المعرفة الحسية فلا قيمة لها فلسفياً وإن كانت معتبرة فى مقاييس الحياة العملية .

حيث تصبح التجربة فى نظر التجريبيين مصدراً للمعرفـــة بالعالم الخارجى ، وأنها المسئولة عن إمدادنا بالمعرفة وذلك بتكوين العقل للمعانى والأفكار الممثلة للواقع بشكل ما .

٥ — يتضح أيضاً مما تقدم تأثر چون لوك — بديكارت . فى نظرية المعرفة — أى انطواء الذهن على أفكار فطرية مشتركة بين جميع بنى البشر .

ولكنها عند ديكارت لم تعتمد إلا على العقل مثل معرفة الذات .

أما عند چون لوك — فتعتمد المعرفة على التجربة الحسية التى بدونها لم يكن ليتم الحدس .

ومن هنا فقد استعار چون لوك — حدسية ديكارت وأقامها على أسس تجريبية وقبل الحدس الديكارتى كجزء من فلسفته التجريبية .

وعلى هذا يتضح أن كتابه مقال فى العقل البشرى لم يكن بقية للبحث فى ماهية العقل وإنما لدراسة الخطوات التى يقطعها العقل فى اكتسابه للمعرفة وبذلك ينطبق عليه فوق ما تقدم أنه ليس منهجياً فى معالجته لموضوعاته وفضلا عن ذلك فالأدلة التى يعتمد عليها إنما هى من أقوال كتاب الرحلات وعلماء الأجناس البشرية والتى هى أقوال نسبية .

ومع ذلك فإن فى فلسفة جون لوك جوانب جديرة بالاعتبار أيضاً :

١ — قوله فى الحصول على المعرفة الإنسانية :

بالتجربة الظاهرة « أى الخارجية »

وبالتجربة الباطنة « أى الداخلية »

وتمييزه بين نمطين من المعرفة أحدهما عن طريق الحواس والثانى عن طريق البرهنة والاستدلال ، وإن كان يقول باستناد الثانية إلى الأولى بالطبع .

٢ — تقسيمه للمعانى إلى قسمين بسيطه ومركبة .

واختلاف معنى التجربة عند جون لوك عن معناها عند الفلاسفة الحسيين الذين يغالون فى النزعة الحسية كتوماس هوبز ...

وعلى هذا فالمعرفة عند جون لوك تعتمد على الاحساس والتفكير معاً وهذا ما يخرجه عن دائرته التجريبية وإن كان زعيما ورائد للمدرسة التجريبية .

وتلك مسألة تدل على أن الحقيقة ملك للأجيال الإنسانية جميعاً .

ومن هنا تتضح أن الوحدة الجامعة لهذه القوى ممثلة فى المجموع الذى هو الإنسان بحسه وعقله ووجدانه كما يرى أولياء الله المتمسكون بمنهج الإسلام والذين لم يعرفهم جون لوك لا كلهم وسمهم به وفى غضون هذا كله ما أروع أن يكون لك رأى فى كل ما تسمع وما تقرأ حول هذه الرؤية الإسلامية ...

د . سامى حجازى

القاهرة فى { ١٩ جماد الآخر ١٤١١ هـ
٥ يناير ١٩٩١ م

ثبت بأهم المراجع

أولا : القرآن الكريم .

ثانياً : كتب السنة الشريفة .

ثالثاً : المؤلفات .

١ ــ إبراهيم بن موسى ــ الموافقات فى أصول الأحكام تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ــ ط صبيح ١٩٦٩ م .

٢ ــ الدكتور ــ أبو بكر ذكرى ــ الأخلاق النظرية ط ١٩٤٢م

٣ ــ أبو بكر محمد الكلاباذى ــ التعرف لمذهب التصوف ــ تحقيق محمد أمين النووى ط ١٩٨٠ م .

٤ ــ أبو طالب المكى ــ قوت القلوب بهامش إحياء علوم الدين ط دار صادر .

٥ ــ أبو العباس أحمد زروق ــ قواعد التصوف ــ تحقيق محمد زاهر النجار ــ مراجعة الدكتور على معبد ــ ط ١٩٧٦ م .

٦ ــ أبى حامد محمد محمد الغزالى ــ إحياء علوم الدين ــ ط الحلبى معارج القدس ط ١٩٢٧ م .

٧ ــ المنقذ من الضلال ــ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ــ ط ١٩٦٨ م

٨ ــ السراج الطوسى ــ اللمع ــ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والأستاذ طه عبد الباقى سرور ١٩٦٠ م .

٩ — السيد الشريف الجرجانى — كتاب التعريفات — ط الأولى بيروت ١٩٨٣ م .

١٠ — الفيروز آبادى — القاموس المحيط — ط الحلبي ١٩٥٢ م .

١١ — بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز — ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

١٢ — برتراندرسل — تاريخ الفلسفة الغربية الكتاب الثالث فلسفة حديثة — ترجمة الدكتور محمد فتحى الشنيطى — ط الهيئة العامة للكتاب ط ١٩٧٧ م .

١٣ — ابن خلدون — المقدمة — ط دار القلم بيروت ١٩٨١ م .

١٤ — ابن عربى — الفتوحات المكية — تحقيق الدكتور عثمان يحيى ط الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٥ م .

١٥ — الدكتور جميل صليبيا — المعجم الفلسفى — ط دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٢ م .

١٦ — حسن كامل الملطاوى — الصوفية فى الهاماتهم — ط المجلس الأعلى ١٩٦٩ م .

١٧ — د . حسن الشرقاوى — ألفاظ الصوفية ومعانيها — ط دار المعرفة ١٩٨٣ م .

١٨ — سهل بن عبد الله التسترى — من التراث الصوفى — تحقيق الدكتور محمد كمال جعفر .

١٩ — المعارضة والرد — تحقيق الدكتور جعفر ١٩٨٠ م .

٢٠ — الدكتور رفقى زاهر — أعلام الفلسفة الحديثة — ط الأولى مكتبة النهضة .

٢١ — د. عامر النجار — التصوف النفسي — ط. دار المعارف ١٩٨٤ م .

٢٢ — د. عبد الحليم محمود — التفكير الفلسفي في الإسلام — ط. ١٩٧٤ م .

٢٣ — الإسلام والمسلم — مقال بالمؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٠ م .

٢٤ — عبد المجيد النجار — العقل والسلوك في البنية الإسلامية ١٩٧٩ م .

٢٥ — الدكتور عزمي إسلام — چون لوك — ط. دار المعارف

٢٦ — د. محمد أحمد مصطفى — علم التصوف — ط. الأولى ١٩٨٣م

٢٧ — محمد باقر الصدر — فلسفتنا — ط. الثانية ١٤٠٨ هـ .

٢٨ — د. محمد عبد الرحمن بيصار — تأملات في الفلسفة الحديثة ط. الثالثة الأنجلو .

٢٩ — الشيخ محمد عبده — تفسير المنار — ط. الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢ م .

٣٠ — محمد فاضل — نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الاسلامي ط ١٩٧٣ م .

٣١ — د. محمود حب الله — الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية — ط الأولى دار الكتب المصرية.

٣٢ — محمود حمدي زقزوق — درسات في الفلسفة الحديثة — ط الأولى ١٩٨٥ م .

٣٣ — التمهيد للفلسفة ط الثالثة ١٩٨٦ م

٣٤ — د . محمود قاسم — دراسات فى الفلسفة الإسلامية — ط دار المعارف ١٩٦٧ م .

٣٥ — د . يحيى هاشم — مداخل لدراسة العقيدة الإسلامية .

٣٦ — د . يوسف كرم — تاريخ الفلسفة اليونانية ط الرابعة ١٩٥٨ م ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م .

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب
٥٣٧٢ / ١٩٩١ م
I , S . B . N :977 - 00 - 1735 - 3